بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة أثر عمل القلب(٧)

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾

دارسة وتدبر

د.ابراهيم بن حسن الحضريتي

وما قدروا الله حق قدره

رقم الإيداع ١٤٤٦/٥٨٨ وتاريخ ١٤٤٦/١/٩هـ

ورقم ردمك ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-١٨٣١-٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضْلِل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولُه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن من أعظم الدلائل على صلاح القلب تقدير العبد لربه حق قدره في كل أحواله وتصرفاته في عباداته الباطنة والظاهرة وفي جميع سلوكه وتعاملاته، فإذا كان القلب ينبض بتعظيم الله وتقديره حق قدره، أثمر ذلك للعبد صلاحاً وتقوى في سره وعلنه أينما كان وأينما حل، وما حصل في العبادة ووقع الشرك وظلم العبد نفسه وغيره إلا بسبب قلة تقدير الله في قلبه، ودونك هذا البحث في هذا الموضوع المهم، والذي أسأل الله تعالى أن ينفعني به وكل من اطلع عليه، وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجه الكريم وأن يتقبله بقبول حسن، إنه ولي ذلك والقادر عليه، **والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله إمام المتقين وقدوة الناس أجمعين.**

الآيات في ذلك.

ورد في هذا المعنى ثلاث آيات وهي:

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

معنى الآيات وأقوال المفسرين فيها

والمعنى: أي ما أجلّوا الله حق إجلاله، وما عظّموه حق تعظيمه، وما عرفوا قدره وعظمته، فلم يوفّوه حقه من التعظيم والتوحيد، حين أشركوا به غيره، ولم يخلصوا له العبادة ، ولهذا ما عرفوه حق معرفته، فما قدروه حق قدره ﷻ.

يقولون: ما عرفنا لفلان قدره ، وذلك حين يخبرون عن تقصيرهم بحق شخص، وهم يريدون تعظيمه(١).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر (٩/ ٣٩٣، ٦٣٧/١٦)، تفسير ابن عطية (٤/ ١٣٤)، تفسير ابن كثير – ت السلامة (٥/ ٤٥٤).

لماذا لم يقدروا الله حق قدره؟

لماذا هؤلاء البشر وقعوا في الشرك، ومخالفة أمر الله، ولم يقدروا الله حق قدره؟

ولذلك أسباب من أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، فقد أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل على رسله –من أجلهم– الكتب، وهداهم إلى الصراط المستقيم هداية الدلالة والإرشاد، وجعل لهم عقولاً يميزون بها بين الخير والشر، لكنهم أبوا وأعرضوا وتكبروا على أمر الله فعصوا الله وعصوا رسله، فكان ذلك سبباً لتسلط الشياطين عليهم فاجتالتهم عن طريق الحق بعد أن عرفوه، قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

من أسباب عدم تقديرهم لله حق قدره.

ولا شك أن لذلك أسباباً كثيرة، ونذكر منها على سبيل المثال الآتي:

١– جهلهم بالله وعدم معرفته.

وهذا من أعظم الأسباب التي تجعل العبد لا يقدر الله حق قدره، وعلاج ذلك بالتعرف عليه ﷻ كما عرّف بنفسه من خلال آيات الكتاب العزيز وما صح من سنة النبي ﷺ والإيمان بأنه الإله المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ لأنه خالق العباد المتكفل برزقهم العالم بما ظهر منهم وما بطن، وهو القادر على إثابة الطائع ومعاقبة العاصي، بيده ملك السموات والأرض والدنيا والآخرة، وهو على كل شيء صغر أم كبر قدير،﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، خلقنا لمهمة واحدة حددها بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وهو الذي يرزق ويعطي بيده ملكوت كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقد بعث جميع الرسل لتحقيق العبودية لله وحده لا شريك

له، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

"وحقيقة هذه العبادة إفراد الله سبحانه بجميع ما تعبد العباد به من دعاء وخوف ورجاء وصلاة وصوم وذبح ونذر وغير ذلك من أنواع العبادة، على وجه الخضوع له والرغبة والرهبة، مع كمال الحب له سبحانه،والذل لعظمته، وغالب القرآن الكريم نزل في هذا الأصل العظيم، كقوله سبحانه: {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ - أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: ٢ - ٣] وقوله سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣] وقوله عز وجل: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ١٤] وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»"(١).

وسيأتي مزيد كلام حول هذا المعنى.

٢- اتباع الشيطان.

ومن أسباب عدم تقدير العبد لربه حق التقدير، تسلط الشيطان عليه واستحواذه على قلبه، فيشغله بكل ما يبعده عن ربه فلا يتمكن من معرفته حق المعرفة.

وعلامة تسلط الشيطان نسيانه لذكر الله وغفلته عنه، قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

---

(١) العقيدة الصحيحة وما يضادها ونواقض الإسلام (ص٦-٧)

فإذا تمكن منه صار من حزب الشيطان لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه، بل يسخره الشيطان ليكون داعية ضلال نعوذ بالله من ذلك.

٣- الافتتان بزخرف القول.

وهذا السبب متعلق بما قبله؛ لأن شياطين الإنس والجن يستخدمون زخرف القول لفتنة الناس عن الحق، فيزينون للناس الباطل والضلال وكل ما يبعد العبد عن الله بواسطة زخارف القول التي تجعل الباطل حقاً وتجعل الحق باطلاً، لمن تسلطوا عليه ووقع في شباكهم، قال تعالى عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

ويدخل في زخرف القول لبس الحق بالباطل ليسهل على اتباعهم الدخول في الباطل، وهم يقولون له أنت على الحق فيخدعوه ويغرّوه بمثل هذه الأساليب، يقول تعالى عنهم: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

٤- التعصب والتقليد الأعمى لما عليه الآباء والأجداد.

وقد ذكر الله في كتابه حال الذين لا يقدرون الله حق قدره إذا جاءهم أمره أو نهيه، فانهم يحتجون على باطلهم بما عليه الآباء والأجداد، ولا ينظرون إلى الحق الذي جاء الله به، كما

قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢١].

٥- إتباع المتشابه وعدم رده للمحكم.

ومن أسباب الضلال اتباع المتشابه وترك المحكم بسبب استحكام الهوى في القلوب، لأن دعاة الباطل الذين في قلوبهم مرض يتبعون المتشابهات؛ لأجل التلبيس على الاتباع؛ ليتبعوهم فيما يغضب الله ويبعدهم عنه وهم لا يشعرون، ولهذا جاء التحذير من ذلك في كتاب الله وسنة رسوله، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ:" تَلَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ "(١).

والآيات المحكمة هي الآيات الواضحات التي ليس فيها لبس ولا إشكال في فهمها وهي أكثر القرآن ومعظمه.

والآيات المتشابهات هي يلتبس معناها على كثير من الناس «لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة»(٢).

لكن أهل الضلال يبحثون في الآيات المتشابه؛ ليستدلوا بها على باطلهم وضلالهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾، ولو أنهم ردوا هذه الآيات المتشابهة في القرآن إلى الآيات المحكمة؛ لتبين

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٤ ط السلطانية)ح(٤٥٤٧)، ومسلم (٨/ ٥٦ ط التركية)ح(٢٦٦٥).

(٢) تفسير السعدي (ص١٢٢).

لهم أن ما يستدلون به على باطلهم ليس صحيحاً كما يزعمون، بل هو يدل على بطلان استدلالهم، ويبين ذلك أهل العلم الراسخون فيه، حين يرجعون الآيات المتشابهة إلى الآيات المحكمة.

الشيطان ودوره في ذلك.

وأعظم مثال على ذلك، الشيطان الرجيم، فهو أول من لم يقدر الله حق قدره واعترض عليه، وذلك حين اعترض على الله وتكبر وأبى أن يطيع أمر الله بالسجود لآدم.

وقد ذكر الله ذلك كثيراً في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١-١٣].

وقال تعالى للناس محذراً لهم من عدوهم ومبيناً لهم هدفه منهم: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥-٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

فهل سمع العباد لأمر ربهم بالحذر من الاغترار بالشيطان وكيده ومكره؟

وهل أخذوا حذرهم منه بمبادرته بالعداء الشديد له؟

أم حصل منهم، ما ظنه ابليس فيهم؟ كما قال تعالى عن الشيطان ووعده الذي قطعه على نفسه أمام ربه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]

ومعنى هذه الآية: أن ظن ابليس قد تحقق في بني آدم حينما وسوس لهم بالباطل، فظن أنهم يتبعونه فصدق ظنه فيهم، فاتبعوه إلا القليل[١].

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٤٩٦)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٧١٦ ط عطاءات العلم).

أمثلة على عدم تقدير العبد لربه.

الوقوع في الشرك.

ومن أعظم الذنوب خطراً، وأشهدها ظلماً، عدم تقدير العبد لربه بالوقوع في الشرك.

الشرك بالله من أعظم الذنوب قبحاً، وأشدها ظلماً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[لقمان: ١٣]»[(١)].

الواقعون في الشرك هم كل من لا يقدر الله حق قدره ولا يعظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٨ ط السلطانية)ح(٦٩٣٧).

خوف المؤمنين حقاً من الوقوع في الشرك.

قال تعالى عن أبي الأنبياء ومكسر الأصنام بيده إبراهيم عليه السلام:﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

ولهذا اشتد خوف السلف من الشرك بالله تعالى ، وقد كان إبراهيم التيمي رحمه الله، يقول:

»من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم، حين يقول: ربِّ ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾)«[1].

إن الذي يقدر الله حق قدره يخاف على نفسه من الوقوع في الشرك خوفاً عظيماً، ويكثر من الدعاء والإلحاح على الله أن يبعده عن الشرك صغيره وكبيره ظاهره وخفيه، فإذا كان أبو الأنبياء ومحطم الاصنام بيده، وإمام الحنفاء يخاف من هذا الأمر، ويدعو الله بهذا الدعاء: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾، فكيف بمن عداه، وكلما زاد تقدير الله في قلب العبد، زاد خوفه من الوقوع في الشرك، واجتهد في الحذر من كل ما يوصل إليه؛ لأنه يشعر بقيمة التوحيد وأهميته العظيمة في حياته، فيحرص كل الحرص على صفاء التوحيد ونقائه من كل شوائب الشرك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

---

(١) تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر (١٣/ ٦٨٨).

وقد خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته، وهذا يستدعي شدة الحذر والخوف من الوقوع فيه، فعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ " قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عز وجل لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً "[١].

فإذا خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم خيرة الأمة فكيف بمن عداهم؟!

وقد بوب الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه في أول كتابه التوحيد باباً بعنوان: «باب الخوف من الشرك»[٢] وأورد فيه أكثر النصوص السابقة، وأضاف هذين الحديثين:

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ" رواه البخاري[٣].

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ شَيْئًا بِهِ دَخَلَ النَّارَ» [٤].

وبهذا يظهر خطورة الشرك العظيمة؛ ولأجل ذلك خاف منه الصالحون وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام، كما سبق الكلام على خوف إبراهيم عليه السلام فكيف بمن عداه؟!

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩/ ٣٩ ط الرسالة)ح(٢٣٦٣٠)، والمعجم الكبير للطبراني (٤/ ٢٥٣)ح(٤٣٠١)، وشعب الإيمان للبيهقي(٩/ ١٥٤ ط الرشد) ح(٦٤١٢)، وقال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ١٠٢)ح(٣٧٥):«رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٢٠)ح(٣٢).

(٢) ينظر كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب (ص١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣) ح(٤٤٩٧).

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٦٦ ط التركية) ح(٩٣)

عبادة القبور

حين يختل في قلب العبد معرفة الله حق المعرفة وتعظيمه حق التعظيم يضعف قدر الله في القلب، فما يقدره حق قدره فيصرف ما له من العبادة لغيره، ويتعلق قلبه بغير الله، فيقع في عبادة المقبورين بحجة أنهم واسطة له عند الله، وأنهم يتشفعون له عند الله، تعالى الله وتقدس عما يقوله الظالمون علواً كبيراً، فوقع هؤلاء في دعاء غير الله وطلبوا من الموتى ما لا يقدر عليه إلا الله.

ولذا توافرت النصوص في التحذير من هذا، وبينت أن الغلو في الصالحين وعبادة المقبورين فيها يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، فقد أوحى" عدو الله وعدو عباده المؤمنين إبليس إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بقبور الأنبياء والأولياء والصالحين، حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله، وعبدت قبورهم واتخذت أوثاناً، وبنيت عليها الهياكل، وصورت أربابها ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله تعالى، وكان أول وقوع هذا الداء في قوم نوح، كما أخبر الله سبحانه عنهم في كتابه، فقال تعالى"[(١)]: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣-٢٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ: كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ: كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ: فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَأٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ: فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ: فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ، لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»[(٢)].

---

(١) فقه الأدعية والأذكار (٢/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٦٠ ط السلطانية)رقم الأثر(٤٩٢٠).

وروى ابن جرير رحمه الله بسنده إلى محمد بن قيس رحمه الله قال: " ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: كانوا قوماً صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم"(١).

وفي هذا المقام أحب أن أنقل كلاماً متيناً شافياً كافياً في هذه المسألة العظيمة لابن القيم رحمه الله وسأنقله بطوله لأهميته(٢):

"وقال غير واحد من السلف: «كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمَدُ فعبدوهم»(٣).

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: أن أمّ سَلَمَة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كَنِيسة رأتها بأرضِ الحبشة يقال لها: ماريةُ، فذكرتْ له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله ﷺ: «أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»(٤).

---

(١) تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر (٢٣/ ٣٠٣).

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ٣٣٢ – ٣٤٢ ط عطاءات العلم)، وحرصت على نقل لفظ الحديث من مصدره.

(٣) ينظر: الدر المنثور (١٤/ ٧١٣) ط. التركي.

(٤) أخرجه البخاري ح(٤٣٤)، ومسلم ح(٥٢٨).

وفى لفظ آخر في الصحيحين: أن أم حبيبة وأم سَلمة ذكرتا كنيسة رأينها[١].

فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور.

وهذا كان سبب عبادة اللات. فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، قال: «كان يَلُتّ لهم السّويق، فمات، فعكفوا على قبره»[٢].

وكذلك قال أبو الجَوْزاء عن ابن عباس: «كان يلتّ السويق للحاجّ»[٣].

فقد رأيتَ أن سبب عبادة يغوث ويعوق ونَسْر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار إليه النبي ﷺ.

قال شيخنا[٤]: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور؛ هي التي أوقعت كثيرًا من الأُمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك؛ فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيل يزعمون أنه طلاسم للكواكب ونحو ذلك؛ فإن الشّرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشَبة أو حَجَر.

ولهذا تَجد أهل الشرك كثيرًا يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدونهم بقلوبهم عبادةً لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السَّحَر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة حَسَم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بَرَكة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بَرَكة المساجد، كما نهى عن

---

(١) أخرجه البخاري ح(٣٨٧٣)، ومسلم ح(٥٢٨)، وهو عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها « أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ أُولَئِكِ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكِ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٣).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٨٥٩).

(٤) يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية، ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٩٢ وما بعدها).

الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ، وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون، سدًّا للذريعة.

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور، متبرِّكًا بالصلاة في تلك البُقعة، فهذا عين المحادّة لله ورسوله، والمخالفةِ لدينه، وابتداع دينٍ لم يأذن به الله؛ فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ: أن الصلاة عند القبور منهيّ عنها، وأنه لَعن من اتخذها مساجد، فمِنْ أعظم المحدثات وأسباب الشّرك: الصلاةُ عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه، فقد صرّح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعةً منهم للسنة الصحيحة الصريحة.

وصرَّح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن يحمل على كراهة التحريم؛ إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يُظَنّ بهم أن يُجوّزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعنُ فاعله، والنهي عنه.

ففي صحيح مسلم عن جُندَب بن عبد الله البَجلي، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: « إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا! أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ! إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[(١)].

وعن عائشة وعبد الله بن عباس، قالا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. متفق عليه[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم ح(٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري ح(٤٣٥)، ومسلم ح(٥٣١).

وفى الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ! اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[١].

وفى رواية مسلم: « لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى!! اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[٢].

فقد نهى عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق مَنْ فعل ذلك من أهل الكتاب؛ ليُحذِّر أمته أن يفعلوا ذلك.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يَقُمْ منه: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، قَالَتْ: فَلَوْلَا ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. متفق عليه[٣].

وقولها: «خُشيَ» هو بضم الخاء؛ تعليلاً لمنع إبراز قبره.

وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناد جيد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: " إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ "[٤].

وعن زيد بن ثابت، أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ. رواه الإمام أحمد[٥].

وعن ابن عباس، قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رواه الإمام أحمد، وأهل السنن[٦].

---

(١) أخرجه البخاري ح(٤٣٧)، ومسلم ح(٥٣٠).

(٢) أخرجه مسلم ح(٥٣٠).

(٣) أخرجه البخاري ح(١٣٣٠)، ومسلم ح(٥٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٤ ط الرسالة)ح(٣٨٤٤)، وصححه جمع من أهل العلم.

(٥) أخرجه أحمد (٣٥/ ٤٨٢ ط الرسالة)ح(٢١٦٠٤). والحديث صحيح بشواهده.

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧١ ط الرسالة)ح(٢٠٣٠) وصححه جمع من أهل العلم .

خطر عبادة الهوى.

الوقوع في عبادة الهوى من الذنوب الخطيرة، التي تدخل إلى القلب دون أن يشعر بها صاحبها، وكلما ضعف تقدير الله في القلب، زاد وقوعه في عبادة الهوى وهو لا يشعر، يقول تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومن أعظم آثار اتباع الهوى الوقوع في الضلال، فقال تعالى محذراً لنبي الله داود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وكل من لم يقدر الله في الدنيا فسيقدره حق قدره في مكان آخر لكن أين؟

سيكون في يوم القيامة حين لا ينفعه ذلك في شيء؛ لأنه صار في دار الجزاء، وإنما يزيده ذلك في العذاب والحسرة التي تقطع قلبه؛ لعظيم خسارته في الآخرة؛ حين لم يقدر ربه حق قدره في دار العمل في الدنيا.

ودونك أمثلة على ذلك مما يحصل لهؤلاء الغافلين في يوم القيامة:

أولاً: فيقدرونه حق قدره عند الموت يوم أن يروا العذاب بأعينهم حين رفع عنها غطاء الغفلة، فيقول الله تعالى عنهم: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ١٩-٢٢].

يقول السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآيات: «أي﴿ وَجَآءَتۡ ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ الذي لا مرد له ولا مناص، ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ أي: تتأخر وتنكص عنه.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ ﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿ وَشَهِيدٞ﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام، توبيخًا، ولومًا وتعنيفًا أي: لقد كنت مكذبًا بهذا، تاركًا للعمل له فالآن ﴿ فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ الذي غطى قلبك، فكثر نومك، واستمر إعراضك،﴿ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه، من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للعبد، فإنه في الدنيا، في غفلة عما خلق له، ولكنه يوم القيامة، ينتبه ويزول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب، بذكر ما يكون على المكذبين، في ذلك اليوم العظيم»(١).

وقال تعالى عنهم عند الموت وقد انكشفت الحقائق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وقال تعالى عنهم: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وقال تعالى عنهم في عرصات القيامة: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

ويرد الله طلبهم بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

هؤلاء الذين تمردوا على الله في الحياة الدنيا فما قدروه حق قدره، واشركوا معه وكفروا به وضلوا وأضلوا، واستمروا على ذلك حتى انتقلوا إلى دار الجزاء، فصاروا بعد ذلك وهم في النار يطلبون من الله ويكررون الطلب تلو الطلب أن يخرجهم من النار.

وهناك في الدار الأخرى عرفوا ربهم حق المعرفة وصاروا يقدرونه حق التقدير، لكن هذا العمل منهم ليس في موقعه في دار الدنيا، بل فعلوا ذلك لما عاينوا العذاب بأعينهم ورفع عنها حجاب الغفلة، وأحسوا بمس النار في جلدوهم؛ حينها لا ينفعهم ذلك شيئاً هيهات

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٨٠٥).

هيهات قد انتهى زمن العمل، فيقول عنهم وهم في النار يتصارخون فيها بأقوى ما يستطيعون من صوت، ثم يرد عليهم بما يزيد عذابهم ويحرق قلوبهم حسرة وألماً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

ويقول تعالى عنهم وهم وقوف على النار: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٣١].

ويقول الله عنهم: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٧].

فيأتيهم الجواب من الله الذي يزيدهم عذاباً فوق عذابهم ثم يذكر بعض ما اقترفوه في هذه الحياة في أذية عباده المؤمنين: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ

فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١٦].

كل المخلوقات تقدر الله حق قدره إلا من أبى وعصى من المكلفين من الإنس والجن.

إنك حين تنظر وتتأمل في خلق الله وتسرح ناظريك وفكرك في هذا الكون علويه وسفليه كله وما فيه يقدّر الله حق قدره، ويعظّمه حق التعظيم: سمواته ومن فيهن، وأجرامه السماوية الهائلة، والأرض بما فيها ومن عليها من مخلوقاته الكل يقدر الله حق قدره إلا من عصى الله من الإنس والجن، ودونك بعض الأمثلة على ذلك:

السموات السبع والأرض ومن فيهن تقدر الله حق قدره.

قال تعالى عن طاعة السموات والأرض لربها: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والصحيح أن السموات والأرض تكلمتا حقيقة، و﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، والله لا يعجزه وهو على كل شيء قدير، وعليه أكثر أهل العلم(١).

وهذا من أعظم الأدلة على معرفة المخلوقات بربها، وتقديرها له حق قدره ،وعلمها به حق العلم، وتعظيمها لأمره ونهيه حق التعظيم.

وقال سبحانه عن مخلوقاته في بيان تقديرها لربها حق قدره: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

"يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته، ففي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد.

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية (٥/ ٧)، تفسير القرطبي(١٥/ ٣٤٤).

﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد.."[1].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ الآية[الأحزاب: ٧٢].

وقد بين الشيخ الشنقيطي رحمه الله بياناً شافياً أن هذه المخلوقات تدرك إدراكاً يعلمه الله جل جلاله ولا نعلمه نحن، فيقول في تفسيره لهذه الآية: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه عرض الأمانة – وهي التكاليف، مع ما يتبعها من ثواب وعقاب – على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها، وأشفقن منها، أي: خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء، والإشفاق كله حق، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكا يعلمه هو جل وعلا، ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها، وأبت وأشفقت، أي: خافت.

ومثل هذا تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة، فمن الآيات الدالة على إدراك الجمادات المذكور قوله تعالى في سورة البقرة في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٧٤]، فصرح بأن من الحجارة ما يهبط من خشية الله، وهذه الخشية التي نسبها الله لبعض الحجارة بإدراك يعلمه هو تعالى.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾ [الإسراء: ٤٤] الآية.

---

(١) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٥/ ٧٨ –٧٩) مع بعض التصرف.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما انتقل بالخطبة إلى المنبر، وهي في صحيح البخاري وغيره.

ومنها: ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ» وأمثال هذا كثيرة، فكل ذلك المذكور في الكتاب والسنة إنما يكون بإدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولو كان المراد بتسبيح الجمادات دلالتها على خالقها لكنا نفقهه، كما هو معلوم، وقد دلت عليه آيات كثيرة»[1].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ٦٦٦ - ٦٦٧ط عطاءات العلم).

مع الرحلة المباركة في موكب الأنبياء عليهم السلام.

انظر -بعين قلبك- إلى ذلك الموكب المبارك الذي عرف الله حق المعرفة، وقدره حق التقدير، وعظمه حق التعظيم إنه يا رعاك الله موكب الرسل والأنبياء، وقد أرسلهم الله برسالاته العظيمة، فقاموا بها خير قيام وأعظمه، فبلغوا الرسالة حق البلاغ، وأدوا الأمانة خير أداء وأعظمه، وقد أصابهم في سبيل دعوتهم ما أصابهم، فتحملوا من أجل تبليغ رسالة الله ألواناً من البلاء، وصبروا على أنواع من الشدائد لا تتحملها الصم الصلاب[1]، وكل حياة الأنبياء تطبيق عملي لتقدير الله حق قدره في كل جوانب حياتهم، ودونك بعض الأمثلة من ذلك الركب المبارك.

نوح عليه السلام.

صبر عليه السلام على دعوة قومه صبراً عظيماً فما ترك طريقة من طرائق الدعوة إلا وسلكها وجاهد في الله حق الجهاد، ونوّع في أساليب دعوته؛ ولأنه يقدر الله حق قدره، صبر على قومه صبراً عظيماً لأجل أن يطيعوا ربهم ويقدروه حق قدره ويبتعدوا عن الشرك، ولا يصرفوا عبادة الله لغيره، واسمع إلى القرآن العظيم يحدثنا عن هذا الجهد المبارك، فيقول سبحانه عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥-٩].

كم مكث عليه السلام يجالد قومه على دعوة الحق ولم تفتر له عزيمة، بل جهد متواصل، وبلاغ ودعوة في كل زمان ومكان يلتقي فيه بقومه، يتحمل كل ذلك الجهد من أجل الله، ولأجل تبليغ رسالة الله، حريصاً على إنقاذهم من عذاب الله مشفقاً عليهم من غضبه حين لا يقدرونه حق قدره، ويشركون معه من لا يجلب لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضراً في الدنيا

---

(١) الجبال.

فضلاً عن الآخرة، واستمر نوح عليه السلام في دعوة قومه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وفي هذه السنين والقرون المتطاولة تعرض نوح عليه السلام لصنوف متعددة من الأذى من قومه، لكنه تحمل كل ذلك من أجل الله، ولتقديره العظيم لربه كان لا يبالي بما يلقاه في ذات الله، بل يلتذ بالأذى والشدائد التي يواجهها في سبيل الله، ويقف شامخاً كالطود، فيقابل كل ألوان السخرية والاستهزاء والأذى الحسي والمعنوي بثبات عظيم يجعله يشق طريق دعوته إلى قومه لا يفتر ولا تلين له قناة، بل ويقابل سخريتهم بسخرية مثلها، كما قال الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾، وهو يعلم يقيناً أنه على الحق وهم على الباطل، فيشعر بعزة عظيمة يقذفها الله في قلبه وهي عزة صاحب الحق، الذي يواجه بقوة الحق ذلك الباطل المنتفش فيزهقه الله على يده، ويجعله يذهب هباء أمام قوة الحق وسلطانه، فيكون كما قال الله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]

وانظر إلى ثبات نوح وقوته في الحق أمام الباطل المنتفش لا يبالى به، ولا يتلفت إليه، قلب موصول بربه ومتعلق به، يقول تعالى عنه: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [هود: ٣٨-٣٩].

إنه الواثق بربه المتعلق قلبه به، فهو يقدره حق قدره، ويعلم يقيناً لمن تكون العاقبة؟ ولمن يكون النصر؟ ومن يحل عليه العذاب المقيم؟ فلا يبالي بسخريتهم به، بل يزيده ذلك ثباتاً عظيماً واستمراراً في دعوته إلى الله تعالى، وإصراراً على بذل كل ما يمكنه من إيصال الحق إليهم وإقامة حجة الله عليم، بل يواجه الباطل بقوة وثبات وصلابة لا مثيل لها، ويتحداهم أن يصيبوه بشيء، على رغم قوة أهل الباطل وشدة صلفهم وتكبرهم على أمر الله ودعوة رسوله نوح عليه السلام،فيقول تعالى عنه في بيان ذلك الثبات العظيم أمام قوة الباطل وتسلطه،

وكل ذلك بسبب أمده الله به؛ لأنه يقدره حق قدره: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

ثم انظر إلى النتيجة والعاقبة لمن تكون؟ وتأمل سيرة نوح في سور القرآن وفي سورة نوح خاصة لترى ذلك الواقع العظيم المبهج الذي يعيشه هذا النبي الكريم من أولي العزم من الرسل ، إنها حياة أخلصت لله تعالى، في الليل والنهار والسر والجهار في عمل متواصل في دعوته إلى الله تعالى، ثم إلى حالنا ليس في الدعوة إلى الله، وهذا شرف قعدت بنا ذنوبنا عنه؛ ولكن في فرائض الله التي فرضها علينا، كيف حالنا مع الله؟! هل قدرنا الله حق قدره في صلاتنا التي نتصل فيها بربنا في كل يوم خمس مرات، وقس على ذلك بقية الفرائض، وإلى الله المشتكى من قصورنا العظيم، وتفريطنا الكبير في حقوقه علينا تبارك وتقدس ﷻ، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وإمام الحنفاء قدوة ومثال عظيم يقتدى به في هذه المسألة العظيمة، والمواقف البارزة من تقدير الله حق قدره في حياة إبراهيم الخليل عليه السلام كثيرة، نأخذ منها موقفاً واحداً، ولما كسّر إبراهيم عليه السلام الأصنام وحدث بينه وبين قومه ذلك الحوار الذي حدثنا عنه القرآن، وقد نفخ الشيطان فيهم بعد ذلك، وأثار فيهم حمية الجاهلية لأصنامهم فأجمعوا أمرهم على تحريق إبراهيم بالنار، وأعدوا لذلك عدة عظيمة، فجمعوا حطباً كثيراً حتى صار مثل الجبل، وأوقدوا ناراً عظيمة، لم يستطيعوا رميه فيها من قرب لشدة لهبها واتساعه، فقذفوه بالقاذفة، ودعنا نعيش في أحداث القصة من خلال آيات القرآن العظيم، فيقول الله تعالى عن أحداث هذه القصة العظيمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

ومما يذكر عن بعض السلف أنه ما قدفوه في النار وصار إبراهيم عليه السلام في الهواء أتاه جبريل وقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى[١].

وفي صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه الله عنهما قَالَ: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[٢].

وفي البخاري أيضاً: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: « ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالُوا: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣]« [٣].

إنهم يقدرون الله حق قدره، ويدركون قوته وعظمته، فبذلوا من أعظم أسباب النجاة، وذلك بدعائهم لربهم وتوكلهم عليه، وتفريغ قلوبهم له، فلم تتعلق بأحد سواه، ولم تلتفت إلى غيره سبحانه وبحمده.

مع أن جبريل عليه السلام يقدر على إطفاء النار أو حمل إبراهيم عليه السلام إلى مكان آخر بعيداً عنها؛ لكن إبراهيم عليه السلام لم يعلق قلبه بغير الله فتوجه إليه بهذه الكلمة العظيمة" حسبي الله ونعم الوكيل" في ثقة تامة بنصر الله وتوكل تام عليه، بأن كل شيء بيده، وهو على كل شيء قدير، فكان الأمر من الله إلى النار ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانت عليه برداً وسلاماً أي: برد لا أذية فيه، إنها قدرة الله العظيمة التي تغير الأشياء عن خصائصها وطبائعها إذا أراد سبحانه، فهو كما قال سبحانه عن نفسه تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير(٥/٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري(٦/٣٨) رقم(٤٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري(٦/٣٨) رقم(٤٥٦٣).

كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١]، لايعجزه شيء، ولا يقف أمام قدرته أحد سبحانه وبحمده، ولا يكشف البلاء إلا هو، ولا يجيب المضطر إذا دعاه إلا هو سبحانه وبحمده ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

فكيف حالنا عندما ينزل البلاء وتواجه أحدنا الشدائد؟! نسأل الله المعافاة والثبات.

موسى عليه السلام.

وموقف آخر من مواقف الأنبياء عليهم السلام يظهر فيه تقدير الله حق قدره، ذلكم هو موقف موسى عليه السلام عندما وصل بقومه إلى البحر وكاد يلحق بهم فرعون بجنوده، فصار البحر من أمامهم والعدو من خلفهم فاضطربت نفوس قومه، ونظرت إلى الأسباب المادية فقط فهناك خلفهم جنوداً لا قبل لهم بها لكثرة عددهم وعدتهم بقيادة فرعون، وأمامهم البحر الخضم الذي لا يرون نهايته، ولا يملكون مراكب ينتقلون بها إلى ضفة البحر الأخرى، ولما كانت القلوب متعلقة بغير الله بعيدة عنه صاحوا في وجه موسى عليه السلام ، كما قال الله تعالى عنهم:﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] فساءت ظنونهم بالله، وقالوا لموسى على سبيل التوبيخ له والجفاء ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، وهذا موقف بلاء عظيم تظهر فيه خفايا القلوب، ويظهر اضطراب النفوس وقلقها وما يترتب على ذلك من خوف وفزع، ومرجع ذلك إلى ضعف تعلق القلوب بالله، فما قدروه حق قدره، ونظروا نظرة قريبة إلى الجانب المادي فخافوا واضطربوا، وفي المقابل انظر إلى ثبات موسى الواثق بربه، المتعلق قلبه به، الذي يقدر الله حق قدره، فقال لهم وهو مطمئن القلب، عنده يقين تام في ربه: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

إنه الثبات العظيم الذي لا تعصف به العواصف مهما كانت شدتها، إنه الواثق بربه الذي تعلق قلبه به، فثبته الله في هذا الموقف العظيم ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، قال لهم: كلا لن يدركونا، وقال ذلك موسى: إيماناً بالله وثقة بوعده، وأنه سبحانه ما أمرهم بالخروج إلا لينجيهم من عدوهم(١).

ثم ماذا كانت النتيجة؟! دعنا ننظر في القرآن العظيم نظرة تأمل وتدبر، وهو يحدثنا عن هذا الموقف العظيم من هذا النبي الكريم، فقال تعالى مباشرة بعد كلام موسى عليه السلام:
﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣

(١) ينظر: تفسير ابن عثيمين لسورة الشعراء(١٣٢).

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٨].

ويوحي الله الذي خلق البحر إلى موسى عليه السلام آمراً له أن يضرب البحر بعصاه، وما إن قام موسى عليه السلام بتنفيذ أمر الله وإذا البحر يستجيب لأمر الله -فهو من المخلوقات التي تقدر الله حق قدره- ينفلق وينشق إلى أثني عشر طريقاً، وفي لمح البصر يجعل الله تربة البحر يابسة يسهل السير عليها، ويحجز الله ماء البحر ذات اليمين وذات الشمال كالجبل العظيم، ويسلك موسى وقومه هذه الطرق في داخل هذا البحر العظيم وعانيته ورعايته تحف بهم من كل جانب، حتى يتمكن أخر واحد منهم من الخروج إلى جهة البر المقابلة ويدخل آخر واحد من جيش فرعون، فيأمر الله عبده موسى أن يضرب البحر؛ ليعود إلى طبيعته التي خلقه الله عليها، وإذا فرعون الطاغية وجيشه تحت البحر في قاعه فكانت النهاية، وأغرق فرعون وجنده في لحظة لم تنفعه قوته ولا جنده، فقد بطش الله في بطشة من بطشاته ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

إنها قوة الله العظيمة التي لا تحدها حدود ولا يقف أمامها أي قوة مهما عظمت وتمكنت في الأرض، وهكذا انتهت قصة هذا الطاغية، وفي أخرها يبرز الله جثته الهامدة ليرى قوم موسى عدوهم يطفو على سطح البحر لاحول له ولا قوة؛ ليكون لهم ذلك آية وعبرة، هذا مصيره في الدنيا، وأما في الآخرة فكما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦-٩٩].

نبينا ﷺ.

ونبينا محمد ﷺ سيد الخلق أجمعين وصاحب المقام المحمود في الشفاعة العظمى يوم القيامة، وصاحب الحوض المورود في عرصات القيامة، فهو أعظم من يقدر الله حق قدره، ولهذا بذل جهداً عظيماً في بلاغ الرسالة إلى درجة أن الله رحمه وأشفق عليه بسبب همه الكبير في هداية الناس لربهم ليؤمنوا به وحده لا شريك له، وقد أصابه من الجهد العظيم في ذلك حتى أن الله رحمه فنهاه عن قتل نفسه غماً وحزناً ألا يكونوا مؤمنين، فقال له سبحانه له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، فيقول الله له –حتى لا يقع في ذلك– لعلك قاتل نفسك حرصاً على هدايتهم وأسفاً وحزناً على عدم إيمانهم.

و﴿بَٰخِعٌ﴾ بمعنى قاتل كما قال أهل التفسير [(١)]، وقال تعالى عنه في الآية الأخرى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

كل هذا منه صلى الله عليه وسلم حرصاً على أمته وخوفاً عليها من عذاب الله.

لأنه صلى الله عليه وسلم –وهو الذي يقدر ربه حق قدره– يريد من أمته أن تقوم بما يجب عليها من حق الله فتقدره حق قدره، ويحذروا عاقبة المعاصي عليهم في الدنيا والأخرى.

كما قال الله تعالى عنه : ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وكما قال الله تعالى عنه في موقف عظيم في يوم هجرته واختفائه بغار ثور يظهر فيه ثباته صلى الله عليه وسلم وتثبيت الله له ولصاحبه في هذا الموقف العظيم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) ينظر: موسوعة التفسير المأثور (١٣/ ٤١٣-٤١٤).

وعن أنس بن مالك أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ: « نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ! فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١).

ودونك بعض المواقف من سيرته العطرة ﷺ في هذا الأمر العظيم، وفي حقيقة الأمر أن حياته ﷺ في كل جزء منها، هي تقدير لله حق قدره ،ومن ذلك نكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة حرصاً على الاختصار:

الأول: عَنْ رجل من بَنِي مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَتَخَلَّلُهَا يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ تُفْلِحُوا»، قَالَ: وَأَبُو جَهْلٍ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ لِتَتْرُكُوا آلِهَتَكُمْ، وَتَتْرُكُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى، قَالَ: وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.. الحديث(٢).

والثاني: عَنْ طَارِقِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُحَارِبِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ تُفْلِحُوا»، وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ، وَقَدْ أَدْمَى عُرْقُوبَيْهِ وَكَعْبَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوهُ، فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: هَذَا غُلَامُ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟ قَالَ: هَذَا عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ.. الحديث(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٦٦)ح(٤٦٦٣)، ومسلم واللفظ له (٧/ ١٠٨ ط التركية)ح(٢٣٨١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٧/ ١٤٨) ح (١٦٦٠٣)، وقال في مجمع الزوائد (٦/ ٢١-٢٢) ح (٩٨٣٠): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، وقال محقق المسند (٢٧/ ١٤٨) ح (١٦٦٠٣): "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين".

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه(١/ ١١٩) ح (١٥٩)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٥١٧-٥١٨) ح (٦٥٦٢)، قال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان (١٤/ ٥١٩) ح (٦٥٦٢): "إسناده صحيح"، وقال الأعظمي محقق صحيح ابن خزيمة (١/ ١١٩) ح (١٥٩): "إسناده صحيح".

الثالث: في موقف عظيم صعب شديد وهو يحفر صلى الله عليه وسلم مع أصحابه الخندق فعرضت لهم صخرة عظيمة لم تفلح المعاول في كسرها، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليكسرها: فَأَخَذَ ﷺ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: «بِسْمِ اللهِ» فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ» وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا». ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ» وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»(١).

إنه الثبات العظيم من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم والثقة العظيمة بوعد الله لنصرة دينه، وهو يبث روح التفاؤل الكبير في هذه المواقف الصعبة والشديدة على الأمة .

في هذا الموقف الشديد يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بهذه الأخبار السارة لتتعلق القلوب بالله وتنظر بتفاؤل عظيم لنصرة الله لهذا الدين، فقال المؤمنون الصادقون المصدقون بوعد الله بنصرة دينه مهما كانت الشدائد، وهم المقدرون لله حق التقدير، قالوا كما ذكر الله عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٠/ ٦٢٦) ح (١٨٦٩٤)، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح وقال (٧/ ٣٩٧): "ووقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: «بسم الله»، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة»، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض»، ثم ضرب الثالثة وقال: «بسم الله»، فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة».

أما أهل النفاق ينظرون بنظرة قاصرة ونظر مادي وينسون قوة الله وقدرته؛ لأنهم لا يقدرون الله حق قدره وقلوبهم معلقة بغيره، فيظهر ما في قلوبهم من مرض النفاق، كما أخبر الله تعالى عنهم في يوم الأحزاب وأمام هذه الأخبار السارة التي يخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن انتصار أمة الإسلام على أعظم أمم الأرض، فلا يصدقون بذلك بل يظهرون السخرية والاستهزاء، ويظهر ما يخفونه من النفاق، كما قال تعالى عنهم : ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقال قتادة رحمه الله عند قوله تعالى: " ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال ذلك أناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم وقد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً "(١).

وهذه القلوب البعيدة عن الله التي لا تقدره حق قدره، فهذه عادتها عند الشدائد والمحن لا يثبت إيمانهم ولا يثقون بوعد الله بل يصيبهم الخوف والاضطراب، لأنهم ينظرون بعقولهم القاصرة إلى الحالة الحاضرة فقط، فتظهر علامات النفاق ومرض القلوب، فلا يؤمنون بوعد الله ولا يصدقونه، وكما قال الله تعالى عنهم: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

(١) تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر (١٩/ ٣٨).

في موكب الصالحين.

في موكب الصالحين عبر الأزمان الطويلة، دعنا أن نرى بعين البصيرة التي في القلب ليتضح لنا جلياً القاسم المشترك بينهم عبر الأزمان هو تقديرهم لله حق قدره، ودونك بعض خبر القوم في ذلك:

هاجر أم إسماعيل عليهما السلام.

في ذلك اليوم من أيام الله يأتي إبراهيم عليه السلام بزوجته هاجر أم إسماعيل وابنها عليهما السلام إلى أرض قاحلة جرز ليس فيها أحد من البشر، ولا يوجد بها شيء من مقومات الحياة من طعام وشراب، وليس معهما إلا جراب من طعام وقربة من ماء لا تكفي إلا لأيام قلائل، وذلك لأن الله أمره بذلك، وما كان منه عليه السلام إلا أن يمتثل أمر الله –وهو الذي يقدره حق قدره– ويتركهما في ذلك الوادي الموحش، ويعود إلى الشام، فتناديه زوجه هاجر عليها السلام يا إبراهيم لمن تتركنا في هذا المكان الذي ليس به أنس ولا شيء؟!

وجعلت تردد ذلك مراراً ولا يلتفت إليها، ولما شعرت أنه أمر من الله قالت لإبراهيم عليه السلام: «**آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا**»؟ «**قَالَ: نَعَمْ قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا** ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ حَتَّى بَلَغَ يَشْكُرُونَ...»[1].

إنها الثقة التامة في الله تعالى التي لا تزعزعها شدة المواقف؛ لأنها قلوب تعلقت بالله وتعرفه حق المعرفة، وتعظمه حق التعظيم، لأنها في داخل القلوب تقدر الله حق قدره، "إذن لا يضيعنا" إنها منهج حياة، ومدرسة في التربية لا تعدلها جميع مدارس الدنيا، وهكذا القلوب العظيمة متى ما تعلقت بالله، فعرفته حق المعرفة، فهي تقدره حق التقدير، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٢ ط السلطانية) رقم الأثر(٣٣٦٤).

تلفت إلا له، و لا تسأل إلا هو، تتضاءل في أعينها القمم مهما كان شموخها، فلا تراها إلا صغيرة لا حجم ولا وزن لها إنما الأمر كله بيد الله سبحانه وبحمده.

"إذن لا يضيعنا" ووالله ما ضاع من ضاع إلا يوم علق قلبه بغير الله، ذهب إلى الضعيف المسكين الذي لا يقدر على شيء ويطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله.

"إذن لا يضيعنا" وإنك حين تتأمل الحال الذي وصل أكثر المسلمين من الضياع والتخبط والتيه لأن القلوب ركنت إلى غير الله وتعلقت بغيره فألى الله المشتكى.

"إذن لا يضيعنا" أين نساء المسلمين اليوم اللاتي يدركن معنى هذا في حياتهن؟!

فترتبط القلوب بالله وتتعلق به في صغير الأمر وكبيره، فتثبت على المبادئ ثبات الجبال الراسخات، وتتشبث بالحق بقوة، وتغلق الأعين وتصم الآذان عن هدير الباطل وآلته الإعلامية، التي نفث فيها شياطين الجن والإنس شرهم العظيم وزخرفوه وزينوه، فكان كما قال الله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

كم من قلوب أصغت إلى هذا الباطل، حين فتحت الأعين والأسماع والقلوب له، فجرفهم تياره القوي إلى شقاء الدنيا والآخرة، وكم تعلقت القلوب بهذا السراب الخادع تظنه شئياً له قيمة، أقصد به سراب الحياة المادية الذي يزينه دعاة الباطل وكلاء الشيطان، فتعلقت بعض قلوب نساء المؤمنين به ونسيت أو غفلت عن معنى: "إذن لا يضيعنا"، فسقطن صرعى أمام البريق الخادع الذي يخدعهن ويدغدغ المشاعر بالعبارات المزخرفة، بأسلوب الشيطان في تزيين الباطل الذي قال الله تعالى عنه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، ومن خلال ألفاظ خادعة ماكرة باسم الموضة تارة، وبتحرير المرأة، والمساواة تارات أخرى، في مسلسل طويل من ألفاظ يكسوها لحاء من البريق الخادع، وما هي إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء،

فإذا اتضحت الحقيقة وانكشف الغطاء عن العين ظهر هناك الأمر على حقيقته أنه سراب خادع ودجل وكذب وتغيير للحقائق لا يسمن ولا يغني من جوع.

فعودي يا أمة الله إلى الله والى التمسك بشرعه الذي أنزله في كتابه وبينه رسوله صلى الله عليه وسلم، فيا من تتشرفين بعبودية الله اجعلي شعاركِ في كل جانب من حياتك "إذن لا يضيعنا الله".

حينها سترين والله ما يجلب لكِ سعادة الدنيا والآخرة.

أم موسى عليه وعليها السلام.

نحن على موعد مع امرأة عظيمة ذكر الله الله خبرها في كتابه العظيم، فقال سبحانه عنها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٧-١٣].

تأملوا معي في هذا الموقف العظيم أم وضعت جنينها، ولما بعد ترضعه جاءها الأمر من الله ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، إن مما لا شك فيه أن قلبها متعلق بابنها، وعاطفة الأمومة تتحرك فيه، لتفديه بنفسها إذا واجهه الخطر، حب لابنها وخوف عليه من أن يقتله فرعون، وقلبها متعلق بالله الذي تقدره حق قدره وتعظمه حق تعظيمه، وتستسلم لأمره في انقياد تام

دون ممانعة أو اعتراض؛ ولما قال الله لها:﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ..﴾ امتثلت أمر الله ولم تعترض عليه مع حبها العظيم لابنها، لكن حب الله في القلب أعظم، وتصديقها بوعده أكبر، فوضعته في التابوت، ودموع الرحمة تتساقط من عينها، وشفقة الأم وهي تودع رضيعها، ولوعة الفراق وهي تلقي عليه نظرة الوداع، أمر لا تعرفه إلا الأمهات في مثل هذه المواقف العصيبة، لكن المرأة الصالحة التي تعلق قلبها بالله وحده لا شريك له همها العظيم أن يرضى عنها، وهي مصدقة بقين تام بوعد الله، ولا يتعلق قلبها بأحد سواه، وهي تقدم أمر الله على كل شيء مهما كانت مكانته في قلبها، إنها قلوب متصلة بالله تعظمه وتعظم أمره لأنها تقدره حق قدره.

ثم تأملوا معي في أحوالنا مع تعظيم أمر الله، ومن ذلك أمر الصلاة، كيف حالنا مع تعظيم أمر الله بأداء الصلاة في وقتها؟، كيف حال البعض من المسلمين والمسلمات في ذلك؟

إن تأخير الصلاة عن وقتها من أعظم الذنوب، وعقوبتها عظيمة تكاد تنخلع منها القلوب.

يقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "والله ما تركوها البتَّة ولو تركوها البتة كانوا كفاراً، ولكن تركوا المحافظة على أوقاتها". وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "يؤخِّرونها عن وقتها"(١).

"ويل" كلمة عذاب وتهديد من الله العظيم، والذي يقدر الله حق قدره يشعر بمعنى هذا التهديد والعذاب، فكيف يحتمل هذا العذاب المترتب على تأخير الصلاة عن وقتها وبالأخص صلاتي العصر والفجر، بسبب النوم الذي يجعل الرأس يتثاقل عن الصلاة.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٩٦).

وتأملوا معي هذا الحديث المخيف عن عقوبة من ينام عن الصلاة المكتوبة، ورد في حديث الرؤيا الطويل: «..وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَهَدْهَدُ الْحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللهِ مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقْ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا..» الحديث.

وقال الملكان للنبي صلى الله عليه وسلم في تفسير الرؤيا وبيان من سيكون له هذا العذاب –نعوذ بالله–:«..أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ..»[1] الحديث.

أيتها المسلمة يا من تحبين الله ورسوله والدار الآخرة، لاشك أن تعظيم الله في قلبك وتقديره حق قدره، يجعلك ترفعين الرأس عالياً بطاعتك لربك وتقديم أمره وأمر رسوله على كل محبوب لديك، تشعرين بعزة المسلمة بحجابها وحيائها، وقوتها أمام الشهوات المغرية التي تبث عليها من خلال الشاشات التي يقوم عليها شياطين الإنس والجن ،كل ذلك الجهد منهم؛ لأجل أن تسمعي وتصغين بقبلك لهم، فيجذبوك إلى الشر والانحراف عن الدين، وربما البعض في غفلة عن هذا الخطر العظيم المحدق بك أيتها المسلمة، من هؤلاء الذين يسعون إلى جركِ إلى درب الشهوات المحرمة، بكل ما يستطيعون من زخارف القول، وقد أحاطوا بك من كل جانب؛ يدسون لكِ السم الزعاف في معسول الكلام، واسمعي إلى كلام الله عنهم الخبير والعليم بهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٤٤ – ٤٥ ط السلطانية).

فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١-١٢٢].

وقال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

يكفي التأمل في هذه الآيات وما يشابهها بقلب حاضر متدبر، يدرك مقصد شياطين الإنس والجن في فتنة المسلم عن دينه، وصرفه عنه بواسطة تزيين الباطل وتشويه الحق، كما هو منهج الشيطان الذي يقول الله عنه كما سبق: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

ومن أعظم ما يزيّنه الشيطان لبني آدم هو كشف العورات، كما سعى في إيقاع ابيهم من قبل، فقال الله تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] الآيات.

وهذا ما تقوم به الشياطين ووكلاؤهم من الإنس في كل زمان؛ ولكن في زمننا هذا جدت وسائل في تسهيل وتزيين هذه العملية الشيطانية في كشف عورات بني آدم، وبالأخص كشف عورات النساء وتزيين ذلك وأخراجه من كونه فعلاً قبيحاً إلى فعل حسن مزيف بأسماء براقة خادعة فيها كذب ودجل الشيطان وخداعه، تحت مسميات خادعة من مثل: الموضة، والتقدم الحضاري، والفن، والحرية، في مسلسل طويل من العبارات الخادعة التي تحت طياتها السم القاتل، من خلال ما يسمى: (السوشل ماديا) مواقع التواصل الاجتماعي وما يدور في فلكها، وأضف إلى ذلك ما يبث من خلال القنوات الفضائية من

دعاية وإعلان يستخدم جسد المرأة ويستعبدها بطريقة ذكية فيها تلبيس إبليس، لينشر من خلال استعراض مفاتن جسدها بضاعته ويروج لها بذلك.

سحرة فرعون.

وفي موكب الصالحين إليك هذه القصة العظيمة، في موقف عظيم تنقلب فيه حياة سحرة فرعون من عبدة للشهوة والمال إلى عبيد لله وحده لا شريك له، ما الذي تغير في حال هؤلاء كل شيء كما هو في الظاهر؛ لكنه سرى في القلب تيار الإيمان الصادق، فاحدث لهم هزة عنيفة نفضت عن قلوبهم وعقولهم معاني الجاهلية، وتشربت قلوبهم بحب الإيمان، وخالطت بشاشته قلوبهم، فهانت عليهم الدنيا بما فيها، لما رأوا الحق وابصرته قلوبهم تغيرت كل مفاهيم الجاهلية التي كانوا عليها.

واصطبغت حياتهم الجديدة بمفاهيم الدين الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، تعالوا بنا لنسمع ونتأمل بقلوب حاضرة متدبرة آيات القرآن وهي تذكر قصتهم العجيبة في آيات متعددة، كل آيات تأتي في سياق معين يذكر الله قصتهم وما فيها من الأحداث والعبر في ذلك السياق، ومن ذلك على سبيل المثال، يقول تعالى عنهم في سورة الأعراف:

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ * وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١٢٦].

وفي سياق ثانٍ في سورة طه يقول تعالى عن قصتهم: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه: ٥٦-٧٦].

وفي سياق ثالث في سورة الشعراء يقول تعالى عنهم: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ

وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨-٥١].

إن المتأمل لقصة سحرة فرعون بتدبر وحضور قلب، يظهر له من عرضها في سياقاتها المختلفة التي تطرق في كل مرة جانباً من جوانبها؛ ليرى من دلائل قدرة الله ما يجعله يزيد يقينه بقدرة الله وقوته العظيمة، فيزداد لله تقديراً وتعظيماً، ودونك بعض هذه الفوائد من هذه الآيات، التي تربط القلب بالله تعالى:

أولاً: يذكر الله تعالى عن حال السحرة قبل أن يدخل نور الإيمان إلى قلوبهم فيذوقوا حلاوته، فيقول تعالى عنهم وهو يبين تعلق قلوبهم بالدنيا: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤].

وقال تعالى عنهم في سورة الشعراء في نفس المعنى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

ثانياً: تعلق قلوبهم بقوة المخلوق وعزته، ونسيان قوة الخالق وعزته، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

ثالثاً: نصيحة موسى لهم وأثرها عليهم ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦١-٦٢].

رابعاً: بداية المباراة بين موسى والسحرة كانت من يلقي أولاً، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٥-١١٦].

وفي نفس السياق يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٥-٦٦].

ويقول تعالى في سياق القصة في موقع آخر: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣-٤٤].

خامساً: حدوث المعجزة التي غيرت مجرى الأمور وقلبت الموازين وظهور الحق بقوة وجلاء، وسجود السحرة لله رب العالمين مؤمنين به حقاً، قال تعالى في بيان ذلك: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢]

وقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧-٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥-٤٨].

وقال تعالى في هذا المعنى في سياق آخر يبين الله فيه ما قاله موسى للسحرة لما ألقوا حبالهم وعصيهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟

قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٠-٨٢].

سادساً: ثبات السحرة على الحق أمام قوة الباطل قوة فرعون وجنده، وردهم على تهديد فرعون لهم، كما بين الله ذلك فقال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٢٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧١-٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩-٥١].

ماشطة ابنة فرعون.

نموذج عظيم للثبات على الحق من قلب عرف الله وأمن به حق الإيمان وقدره حق التقدير، أنها ماشطة ابنة فرعون، ودونك خبرها كما ورد في السنة من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى[1] مِنْ يَدِها، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ! قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ[2] فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ. قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا؛ وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ. فَاقْتَحَمَتْ ".

قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكَلَّمَ أَرْبَعَةُ صِغَارٍ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ»[3].

---

(١) قال في النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١١٥): «شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر المتلبد، ويستعمله من لا مشط له».

(٢) اناء كبير متسع مأخوذ من التبقر بمعنى التوسع، أو يسع بقرة لو وضعت فيه.
ينظر النهاية في غريب الحديث(١/ ١٤٥).

(٣) مسند أحمد (٥/ ٣٠-٣١ ط الرسالة)ح(٢٨٢١) وحسن إسناده المحقق، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، والله أعلم.

أريتم كيف الثبات؟ لما قدرت الله حق قدره أمدها بعونه وقوته وهذا الثبات العظيم، فتحملت عذاب الدنيا لأجل الله، وصبرت على ذلك: على قتل أبنائها أمام عينها بهذه الطريقة البشعة، وصبرت على أن ترمى في ذلك الإناء الشديد الحرارة، محتسبة للثواب عند الله؛ لأجل الفوز العظيم في الدار الباقية في جنات ونهر، فكيف ببعض المسلمات والمسلمين لا يحتمل أحدهم كلمة سخرية أو استهزاء من أجل دينه.

آسية بنت مزاحم امرأة فرعون.

امرأة عظيمة كانت ملكة تعيش عيشة الملوك في أفخم القصور وأعظم متع الدنيا، لما عرفت الحق وذاقت حلاوته أقبلت عليه، وامتلأ قلبها بحب الله والقرب منه في الدار الآخرة، فتعلق قلبها بالله وصارت متع الدنيا كلها لا تساوي عندها شيئاً، فاختارت الله وكفرت بفرعون. وعندما علم فرعون بإيمانها بالله وحده لا شريك له، جن جنونه وبطش بها بطشاً عظيماً، وعذبها حتى ماتت تحت وطأة العذاب صابرة محتسبة تريد جوار الله في جنات النعيم[١]، فذكر ﷻ خبرها في كتابه، فقال تعالى مثنياً عليها، وكفى بهذا شرفاً لها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ "[٢].

وقَالَ صلى الله عليه وسلم: "كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ"[٣].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر (٢٣/ ١١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩ ط الرسالة)ح(٢٦٦٨)، وصحح إسناده المحقق.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٥٨ ط السلطانية) ح(٣٤١١).

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: " حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ": قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ[1].

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٠٣ ت شاكر)ح(٣٨٧٨)، وحكم الألباني بصحته.

مع الصحابة الكرام ﷺ

كل حياة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، هي تطبيق عملي لهذا المعنى العظيم، أينما قلبت سيرة القوم، وجدت سيرة عطرة مليئة بتعظيم الله وتقديره حق التقدير، ولعلي في هذه العجالة أقف أنا وإياك مع خبر رجل واحد من تلك القمم العالية.

مع خبر الفاروق رضي الله عنه.

وسيرته بعد إسلامه عجب من العجب ودونك بعض خبره رضي الله عنه:

آيات تغير مسار حياته.

مما اتفقت عليه الكثير من الروايات في إسلام عمر رضي الله عنه، أنه قرأ آيات من القرآن غيرت مسار حياته، فتحول من عدو لله ولرسوله إلى محب صادق، ومؤمن قوي الإيمان، فلما ذاق حلاوة الإيمان وخالطت بشاشتها قلبه استنار قلبه وأفاق من غفلته ليكون إسلامه يوماً خالداً من أيام الله ويوماً فارقاً في حياة المسلمين حيث أعزه الله بهذا الإسلام وأعز به الدين.

وهكذا القرآن العظيم من أعظم الأسباب التي تجعل العبد يقدر الله حق قدره، إذا أقبل عليه بقلبه؛ متدبراً لآياته مستحضراً لعظمة قائله، فإنه يفعل الأعاجيب في القلوب، ويحدث فيها أثراً عظيماً، فكيف حالنا مع هذا الكتاب العظيم الذي يقول تعالى عنه منبهاً على شرفه، ومحرضاً على معرفة قدره[1]: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

أي: فيه شرفكم في الدنيا و نجاتكم في الآخرة، وكما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤].

«{وَإِنَّهُ} أي: هذا القرآن الكريم {لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضاً ما فيه الخير الدنيوي والأخروي،

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير – ت السلامة (٥/ ٣٣٤).

ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه، {وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة»[(١)].

وقال تعالى عنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٢-٨].

تعظيمه لأمر الله.

لقد كان رضي الله عنه معظماً لأمر الله وقّافاً عند حدوده؛ لأنه يقدر الله حق قدره، ويعظمه حق التعظيم، في موقف عظيم صعب من رجل يثني عليه وهو في آخر عمره قبل موته بوقت يسير ويرى في ثوب الرجل طولاً تحت الكعب، فيقول له ناصحاً: "يا ابن أخي! ارفع إزارك، فإنه أتقى لربك وأنقى لثوبك"[(٢)].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه معلقاً على نصيحة عمر رضي الله عنه في هذا الموقف: "يا عجبًا لعمر إن رأى حق اللَّه عليه فلم يمنعه ما هو فيه أن تكلم به"[(٣)].

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٧٦٦).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٢٥ ت الشثري) رقم الأثر(٢٦٤٢٨).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٢٥ ت الشثري) رقم الأثر(٢٦٤٢٨).

زهده في الدنيا وتعلق قلبه بالآخرة.

وعن مصعب بن سعد قال: قالت حفصة بنت عمر: لعمر يا أمير المؤمنين لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك، فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير، فقال: "إني سأخاصمك إلى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من شدة العيش، وكذلك أبو بكر فما زال يذكرها حتى أبكاها، فقال لها: أما والله لأشاركنهما في مثل عيشهما الشديد؛ لعلي أدرك عيشهما الرخي"(١).

خوفه من الله تعالى.

رجل مبشر بالجنة يأتي إلى حذيفة بن اليمان، ماذا يريد من حذيفة؟ اسمع إلى الخبر العجيب العظيم من هذا الرجل العظيم، أمر أقلقه وأقض مضجعه حتى يتأكد أنه سلم من ذلك الخطر العظيم، خطر النفاق الذي خاف منه، قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لحذيفة بن اليمان- وهو أمين السر الذي أعلمه النبيﷺبأسماء المنافقين- : "يا حذيفة، نشدتُك بالله، هل سمَّاني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم؟ فقال: لا، ولا أزكّي بعدك أحدًا"(٢).

الله أكبر هذا الرجل العظيم المبشر بالجنة، يخاف هذا الخوف على نفسه من النفاق، فكيف بحالنا؟ والله يعلم حالنا، ونساله أن يتم عافيته وستره علينا في الدنيا والآخرة.

وعن عبد الله بن عامر قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض فقال: ليتني هذه التبنة، ليتني لم أك شيئاً، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسياً منسياً" (٣).

وعن عبد الله بن عيسى قال: كان في وجه عمر خطان أسودان من البكاء"(٤).

---

(١) صفة الصفوة (١/١٠٦-١٠٧) أخرجه عن أحمد.

(٢) وهو في الزهد لوكيع (ص٧٩١) بلفظ مقارب.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٩٨ ت الحوت)

(٤) صفة الصفوة (١/ ١٠٧).

ربما يسمع الآية فيتأثر بها أياماً من خوفه من الله، ومن ذلك أنه سمع وقيل سورة من أولها حتى بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧-٨]، فتأثر من ذلك وتذكر وتدبر في معنى الآيات، وأن المقسم هو الله، فقال: فبكى واشتد بكاؤه، فقيل له في ذلك، فقال: "دعوني، فاني سمعت قسم حق من ربي"، وقيل تأثر من ذلك أياماً.

فكيف بنا نحن؟ نسمع هذه الآيات، ونقرؤها كثيراً لكن أين الأثر؟

إن الخلل في قلوبنا، حين ضعف تقدير الله حق قدره في القلوب، إلى الله المشتكى!!!

خاتمته العظيمة.

وقد ختم الله بالشهادة في سبيله وهو قائم يصلي في المحراب على يد عميل المجوس أبو لؤلؤة المجوسي، ولكن انظر إلى هذه المواقف العجيبة، يقول رضي الله عنه لما أثنى عليه الصحابة رضي الله عنهم بأعماله العظيمة الجليلة: "فوالله لوددت أني أنجو منها كفافاً لا علي ولا لي"(١).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه، فقال لي: ضع رأسي، قال: فوضعته على الأرض، فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي"(٢).

وقال المسور بن مخرمة رضي الله عنه: لما طعن عمر قال: "لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه"(٣).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٠ ت الحوت).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٥٢).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٥٢).

كيف نقدر الله حق قدره؟

وهذا موضوع عظيم جليل القدر يحتاج إلى كتاب مستقل، ونسأل الله أن يمد في العمر لكتابته، وأن يفتح عليّ بالإخلاص والتوفيق والإعانة، ولكن أحب أن أشير هنا في هذا الأمر ببعض الإشارات السريعة نسأل الله العظيم أن يفتح علينا وأن يوفقنا في ذلك، ودونك بعض هذه الإشارات المجملة مع التفصيل في بعضها:

أولاً: من خلال معرفتنا به بأسمائه وصفاته التي ذكرها في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ.

ثانياً: ترسيخ توحيد الألوهية في القلب مع الحرص الشديد على صفاء التوحيد ونقائه من الشرك بكل أنواعه والبعد عن كل ذرائعه الموصلة إليه.

ثالثاً: ترسيخ توحيد الربوبية في القلب.

رابعاً: الإيمان الحق بالملائكة والرسل والكتب والقدر خيره وشره.

خامساً: نخص بالذكر وشيء من التفصيل الركن السادس من أركان الإيمان: الإيمان بحقائق اليوم الآخر.

سادساً: التأمل والتفكر في خلق السموات والأرض.

سابعاً: تدبر آياته المتلوة في القرآن العظيم.

ثامناً: من خلال عبادة الصلاة الخاشعة.

تاسعاً: حضور القلب في عبادة الدعاء والذكر.

عاشراً: تعظيم أمر الله بالامتثال.

الحادي عشر: تعظيم نهيه بالاجتناب.

الثاني عشر: كثرة التوبة والاستغفار.

واختار مما سبق ستة أسباب:

السبب الأول: التعرف على الله من خلال الأسماء والصفات.

إن من أعظم الأسباب التي تجعل العبد يقدر الله قدره، التعرف عليه من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى ﷻ وذلك من خلال تدبر آيات الأسماء والصفات التي وردت في القرآن العظيم وفي حديث النبي ﷺ، و أعظم ما تطمئن به النفس « في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله، إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرَتْ به عنه رسلُه؛ فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان، وانشراح الصدر له، وفرحِ القلب به؛ فإنه تعرُّفٌ من تعرُّفات الربِّ سبحانه إلى عبده على لسان رسوله.

فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتى يخالطَ الإيمانُ بأسماء الربِّ تعالى وصفاتِه وتوحيدِه وعلُوِّه على عرشه وتكلُّمِه بالوحي بشاشةَ قلبه، فينزلُ ذلك عليه نزولَ الماء الزُّلالِ على القلب الملتهِب بالعطش، فيطمئنُّ إليه، ويسكن إليه، ويفرح به، ويلين إليه قلبه ومفاصله، حتى كأنه شاهدَ الأمر كما أخبرت به الرسلُ.

بل يصير ذلك لقلبه بمنزلةِ رؤية الشمس في الظهيرة لعينه، فلو خالفه في ذلك مَن بين شرقِ الأرض وغربِها لم يلتفت إلى خلافهم، .. وما نقَصَ ذلك من طمأنينته شيئًا.

فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوَى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهاية له.

فهذه الطمأنينةُ أصلُ أصولِ الإيمان التي عليها قام بناؤه.. والطمأنينةُ إلى أسماء الربِّ تعالى وصفاته نوعان: طمأنينةٌ إلى الإيمانِ بها وإثباتِها واعتقادِها، وطمأنينةٌ إلى ما تقتضيه وتُوجِبه من آثار العبودية»[1].

وكلاهما مطلوب لغرس معاني تعظيم الله في القلوب.

---

(١) الروح – ابن القيم (٢/ ٦٢٤-٦٢٧ ط عطاءات العلم).

ودونك رحلة إيمانية في بعض آيات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى في القرآن العظيم، نعيش معها بقلوبنا وننعش بها إيماننا لتطمئن منا القلوب، ونستلهم من خلالها هذا المعنى العظيم، فنقدر الله حق قدره.

اسم الله جل جلاله "العليم".

إننا يا عبد الله حين نتأمل بقلب حاضر متدبر في أثر هذه الآيات –وغيرها– علينا، حين نتلوها بألسنتنا، وقلوبنا تتدبر المعاني التي تُغْرَسُ فيها من آثار تدبر هذه الآيات، كل آية لو رسخ معناها في القلوب لشعرت بعظمة الله فقدرته حق التقدير، وتعال معي، واحضر قلبك لنقف على بعض معاني آيات علم الله المحيط بكل شيء، والتي تغرس عظمة الله في قلوبنا، ودونك بعض الآيات في ذلك وهي كثيرة جداً في القرآن العظيم:

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣].

احضر قلبك حفظك الله ورعاك، وقل لي كم من معاني العظمة والتقدير لله تحدثها هذه الآيات في قلوبنا؟ ونحن نتلوها ونتدبرها!!!

يقول الله لنا ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ الآية واضحة لا تحتاج إلى تفسير طويل، إنما تحتاج إلى قلب حاضر متدبر للمعنى، حين يتلوها يشعر بخطاب الله له، ثم تأمل وتدبر بعد ذلك في الخطاب الجليل العظيم من ربنا لنا، حرك قلبك بمعانيه العظيمة حين تعصف بك الشهوات أو يصارعك موج الشبهات، وتدوس على أزرار الجهاز لتقلب الصفحات أو تقلب القنوات، وزين لك الشيطان معصية الله، تذكر هذا المعنى، وكرر معي هذه الآيات بقلب حاضر متدبر وعقل يعي ويدرك ما يقول، عندها ستشعر بقرب الله منك، وعلمه المحيط بكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، وأنك مكشوف أمامه لا تخفى عليه منك خافية، فإذا حضرت هذه المعاني في القلب زاد الإيمان وزاد تعظيم الله، فقدر العبد ربه حق التقدير، وكف عن المعاصي وسكب دموع الندم بين يدي ربه، فتاب وأناب.

ردد معي واسمع بقلبك هذه الآيات، لتسكب في قلبك طمأنينة الخشوع والخضوع لله تعالى، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً في كتاب الله تعالى.

ونختم هذه الجولة مع اسم الله جل جلاله "العليم" بخمسة مواضع من كتاب الله تعالى، نتأمل ونتدبر فيها:

الأول: قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وإن الكلمات لتقف عاجزة عن تقريب معنى هذه الآية؛ لكن يكفى تلاوتها بتدبر وتكرار وحضور القلب، فعند ذلك ستحدث لك أثراً عظيماً في تقدير الله حق قدره.

الثاني: قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

يقول السعدي رحمه الله:«ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا} والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}»[(١)].

الثالث: قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣-١٤].

«هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه فقال: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ} أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، فـ {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} أي: بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟!

ثم قال -مستدلا بدليل عقلي على علمه-: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا [والخفايا والغيوب] ، وهو الذي {يعلم السر وأخفى} ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة»[(٢)].

الخامس: قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٨٤٥).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٨٧٦).

«يخبر تعالى، عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم، وسكناتهم، وفي ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ} أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية. {وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ} أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

{وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} صغير أو كبير {إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة، والاجتهاد فيها، وإياكم، وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

{وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ} أي: ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره ومشاهدته {مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه»[1].

وقد ختم الله في ١٥ آية بقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وفي ١٦ آية ختم الآيات ب﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وفي ١٢ آية ختم الله الآيات بقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

ولا شك أن كل آية ختمت بهذه الصفة من الله تعالى لها ارتباط بما قبلها فكانت الخاتمة مناسبة لما قبلها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

«{إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه،

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٣٦٧).

واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم»[١].

إذا تدبر العبد هذه الصفة من صفات الله علمه واطلاعه على ما في الصدور، واستشعر معنى ذلك، غرس ذلك في قلبه مراقبة الله تعالى، ودوام المحاسبة لنفسه ولما يجول في قلبه من إرادة السوء، فيعظم الله حق التعظيم، وإذا زلت به القدم ووقع فيما يغضب الله ،تذكر الله، وتذكر اطلاعه عليه، فانكسر قلبه، وسالت دمعته خشية من عذاب الله وحياء منه، وتاب إلى ربه واستغفر لذنبه، فيكون حاله كما وصف الله تعالى حال المتقين في سورة آل عمران، يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

فهم بشر تضعف النفس عندهم، ويقعون فيما يغضب الله؛ ولكنهم سرعان ما يستفيقون من غفلتهم، ولا يستمرون على الخطأ، لأنهم يقدرون الله حق قدره، ويعظمونه حق التعظيم ويشعرون في قلوبهم بذلك، ويشعرون في قلوبهم بغصة الذنب الذي وقعوا فيه، فيسكبون دموع الندم ويرفع كف الاعتذار ويطلبون من ربهم أن يتوب عليهم، ولا يصرون على الخطيئة أبداً لعظمة الله في قلوبهم، فحين وقعوا في الذنب تذكروا الله وتذكروا عظمته وقوته وغضبه وبطشه ففروا إليه تائبين منيبين، يرجون رحمته ويخافون عذابه، فكانوا كما قال عنهم فيما سبق: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٢٢٤).

«ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم، فقال: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم} أي: صدر منهم أعمال سيئة كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: {ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون}»[1].

وكان جزاؤهم كما ذكر ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

(١)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص١٤٩).

اسم الله جل جلاله "السميع البصير".

وقد ختم الله آيات كثيرة بهذين الاسمين من اسمائه الحسنى

فقد ختم الله بقوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ في ٤ آيات.

وختم الله تعالى أربع آيات بقوله: ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

وختم في آيتين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرَۢا﴾ [النساء: ٥٨].

و في آية واحدة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرَۢا﴾ [النساء: ١٣٤].

وختم في ٣ آيات بقوله تعالى: ﴿بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ .

وفي آية واحدة ﴿بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

وفي ١٤ آية ختم بقوله تعالى ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وفي آية واحدة ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وكل هذه الآيات تشعر المؤمن المتدبر لهذه الأسماء والصفات بمعاني عظيمة وجليلة المقدار تجعله يعظم الله حق التعظيم، فيقدر الله حق قدره، ويستحي من أن يراه الله على أمر لا يحبه، أو يسمع منه ما لا يحب، فينكف عن الخطايا، ويستحي من الله حق الحياء كما يستحي من عظيم في قومه عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَوْصِنِي؟ قَالَ: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ اللَّهَ كَمَا تَسْتَحِي رَجُلًا صَالِحًا مِنْ قَوْمِكَ»(١).

وقال محمد بن نصر المروزي رحمه الله –في كتابه تعظيم قدر الصلاة– معلقاً على هذا الحديث: «ألست ترى أن الإنسان إذا علم أن رجلاً صالحاً ينظر إليه، أو يسمع كلامه، أمسك عن كل ما يخاف أن يمقته عليه، أو يضع من قدره عنده، ولو علم أنه يطلع على ما في ضميره لما أضمر إلا على ما يعلم أنه يُحَسِّنُهُ عِنْدَهُ وَيُجَمِّلُ، وكذلك يستحي من الرجل

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص٤١) ح(٢٤٨)، ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٢٨)ح(٨٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير(١/ ٤٩٨)ح(٢٥٤١).

الصالح من كل نقص في فضل إلا لمرض، فأجمل النبي صلى الله عليه وسلم تفسير الحياء من الله في هذه الكلمة، فمن استحيى من الله فيما يظهر، وكل شيء ظاهر له كما يستحيي من الرجل الصالح فقد استحيى من الله حق الحياء لأنه عالم بأن الله مطلع على ما في قلبه فلا يدع قلبه يضمر على شيء مما يكره إن عرض له رياء في عمل، أو عجب، أو كبر ذكر نظر الله إليه فاستحيى منه أن يرى ذلك في قلبه فتركه، واستحيى أيضاً من كل نقص يدخل فيه من فضول الدنيا، أو من فضول الكلام، وإن كان مباحاً؛ لأنه يعلم أن الله قد زهّده في ذلك ورغّبه في تركه، فهو يستحي أن يراه راغباً فيما زهّده فيه، وكذلك إن خاف غيره، استحيى منه أن يراه يخاف غيره، أو يرجوه، أو يطمع فيه..»[١].

ومن ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال السعدي رحمه الله في تفسيره: «{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه.

{وَهُوَ السَّمِيعُ} لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. {الْبَصِيرُ} يرى دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة»[٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

تقول عائشة رضي الله عنها: «" تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه

---

(١) تعظيم قدر الصلاة – محمد بن نصر المروزي (٢/ ٨٢٨).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٧٥٤).

وسلم وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} [المجادلة: ١] "(١).

وفي هذا إخبار عن كمال سمع الله وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة(٢)، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بصره وسمعه محيط بكل شيء ﷻ، فتوجه إليه بجميع حاجاتك ومطالبك، فإنه يسمعك ويراك أينما كنت، في أي زمان أو مكان كنت، فهو القريب المجيب الودود الغفور الرحيم، فلماذا تتعلق القلوب بغيره وتطلب حاجاتها من غيره إلا حين ضعف علمها بالله وأنه العليم السميع البصير القريب المجيب الذي قال عن نفسه ﷻ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الحديد: ١-٦].

والآيات في إثبات سمع الله وبصره كثيرة في كتاب الله نكتفي بما سبق.

وفي السنة في الصحيحين ولفظه عند البخاري من حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرَفًا، وَلَا نَعْلُو

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٦٦ ت عبد الباقي)ح(٢٠٦٣)، ومسند أبي يعلى (٨/ ٢١٤ ت حسين أسد) ح(٤٧٨٠) وصحح إسناده المحقق، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٨٤٤).

شَرَفًا، وَلَا نَهْبِطُ فِي وَادٍ إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ، قَالَ: فَدَنَا مِنَّا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا.." الحديث(١).

وفي لفظ آخر في الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَيْبَرَ، أَوْ قَالَ: لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ.." الحديث(٢).

فقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الله تعالى في هذا الحديث بالسمع، والبصر، والقرب من عبده، وبالمعية الخاصة بعباده المؤمنين، وكل هذه المعاني العظيمة تزيد المؤمن الشعور بقرب الله منه ومعيته له الخاصة بعباده المؤمنين، فيزداد قرباً من ربه، وقوة في يقينه باطلاعه عليه، بسمعه، وبصره، وعلمه المحيط به، فيكون خاشعاً خاضعاً لربه يراقبه في سره وعلنه، ويعبده ويترقى في مراتب الدين حتى يصل إلى مرتبة الإحسان، فيكون كما قال صلى الله عليه وسلم عن أعلى مراتب الدين لما سأله جبريل عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٣).

فيكون هذا حاله في عبادة الله في صلاته، ودعائه، وتلاوته لكتاب ربه، وفي ذكره له، وفي سائر شأنه، مستحضراً لعظمة الله وقربه منه واطلاعه عليه، فيعظمه حق التعظيم، ويقدره حق التقدير.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٢٥ ط السلطانية)ح(٦٦١٠)

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١٣٣ ط السلطانية)ح(٤٢٠٥) وهذا لفظه، ومسلم (٨/ ٧٣ ط التركية)ح(٢٧٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٩ ط السلطانية)ح(٥٠)، ومسلم (١/ ٢٨ ط التركية)ح(٨).

اسم الله جل جلاله "الرحمن الرحيم".

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣].

قال السعدي رحمه الله في معناهما: «اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها»[(١)]، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآية.

وقد ختم الله أربع آيات بهذين الاسمين، منها قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قال السعدي رحمه في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى – وهو أصدق القائلين – أنه {إِلَهٌ وَاحِدٌ} أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرّف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبيَّن لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة، فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين، لا ينفع أحداً، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

---

(١)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٣٩).

وأن من أظلم الظلم، وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق من تراب، برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه، مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية، إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى»(١).

وقال تعالى عن كتابه العظيم: ﴿تَنزِيلُ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].

«يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل {تَنزِيلُ} صادر {مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها، إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به، من العلم والهدى، والنور، والشفاء، والرحمة، والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين»(٢).

ورد اسم" الرحمن" مفرداً في ٤٢ آية منها:

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

يذكر الله نعمته على عبيده بحفظه لهم في الليل والنهار، فهو الذي يحفظكم ويحرسكم بالليل وقت نومكم، وبالنهار وقت انتشاركم وحركتم في أرضه، وأنتم غافلون عن هذه النعم،

---

(١)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٧٧).

(٢)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٤).

بل تشكرون غيره عليها، فهو وحده الذي يقوم بذلك لا شريك له، فلا حافظ إلا هو، ولا أحد يستطيع أن يقوم بذلك من غيره[١]، فلماذا لا يقدّرونه حق قدره؟! ﷻ وتقدس.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٖ﴾ [يس: ١١].

}»إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ} أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، {وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ} أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله، { فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ } أي: لذنوبه، {وَأَجۡرٖ كَرِيمٖ} أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك : ١٢]«[٢].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءم بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

«قال تعالى: { أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ} أي: تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً { مَا يُمۡسِكُهُنَّ } أي: في الجو {إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ } أي: بما سخر لهن من الهواء، من رحمته ولطفه، {إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءم بَصِيرٌ} أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩]»[٣] ونحن اليوم نشاهد مخلوقاً يشبه الطير وهي الطائرة التي تسبح في جو السماء، من الذي يمسكها أن تسقط على الأرض فتتحطم بمن فيها؟ أليس هو الله ﷻ؟ فهو الذي سخر السنن

---

(١) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٥٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٦/ ٥٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٨/ ١٨٠).

والقوانين للإنسان ليتمكن من هذه الصناعة التي تدل على عظمة الله وقدرته ورحمته بخلقه حيث سخر لهم ذلك وحفظهم في البر والبحر والجو، فلماذا ينسونه ولا يقدرونه حق قدره؟! سبحانه تقدس وتعالى.

والآيات في ذكر اسم الرحمن مفرداً في القرآن العظيم كثيرة نكتفي بما سبق.

وفي هذه الآيات وفي غيرها ذكر آثار اسم الله الرحمن

ورد اسم الرحيم مفرداً في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وخص الله المؤمنين في هذه الآية بكونه رحيماً بهم من بين بقية خلقه، فهو رحيم بهم « في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصّرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم، من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطغام.

وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم»[(١)].

قال السعدي رحمه الله في تفسيره: «أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم، وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان، والتوفيق، والعلم، والعمل، فهذه أعظم نعمة، أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه، أفضل الملائكة، ومن حوله، يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ﴿ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ

(١) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٦/ ٤٣٦).

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩]، فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم، وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه، إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]»[(١)].

وقد ورد اسم "الرحيم" مقروناً بغيره في الكثير من الآيات، ومن ذلك:

"التواب الرحيم".

ختم الله ٦ آيات بهذين الاسمين، فقال تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ومنها: قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وختم آيتين بقوله تعالى: ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

وكل هذه الآيات التي ختمت بهذين الاسمين" التواب الرحيم" يفتح الله بابه لعباده التائبين ليقبلوا عليه، وهو الرحيم بهم، فلا يقنطوا من رحمته، ولا يبعدوا عنه بذنوبهم، بل هو قريب منهم تواب عليهم رحيم بهم، يفتح لهم باب التوبة، ومن رحمته يوفقهم لها، ويقبلها منهم، فلماذا يبعدون عن الله؟ إلا حين لا يقدرونه حق قدره، ولا يشعرون بسعة رحمته، ولا يعرفون أنه يحب التوابين إليه، وهو أرحم بهم وأشفق عليهم من أمهاتهم اللاتي ولدنهم سبحانه وبحمده، وانظر إلى سعة رحمة الله، والحديث في الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٦٦٧).

عنه: أَنَّهُ قَالَ: « قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(١).

"الغفور الرحيم".

وختم الله بهذين الاسمين ٧ آيات، ومنها:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

"غفور رحيم".

وختم الله ٤٩ آية بهذين الاسمين، ومن ذلك:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٨-١٩].

والآيات في هذا كثيرة.

وفي هذه الآيات يختم الله بهذين الاسمين "الغفور الرحيم، غفور رحيم" ليشعر عبده بسعة مغفرته ورحمته، ليقرب العبد من ربه، وليقبل على كثرة الاستغفار، مع تعلق قلبه بسعة رحمة الله، فإذا زلت به القدم، ووقع في الخطيئة، بادر إلى طلب مغفرة الله ورحمته، مع يقينه

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٨ ط السلطانية) ح(٥٩٩٩)، ومسلم واللفظ له (٨/ ٩٧ ط التركية)ح(٢٧٥٤).

التام بسعة عفوه ولطفه بعبده، وشعوره بالندم مما حصل منه في حق ربه، فحينها يجد لذة التوبة وحلاوة القرب من الله، وهي جنة معجلة يعيش في ظلالها الوارفة من ذاق ذلك، وهذه الآثار لها ارتباط بما بعدها في الاسمين الآتيين.

"رحيم ودود".

في آية واحدة قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

فالله {رَحِيمٌ } بمن تاب إليه وأقبل عليه، {وَدُودٌ} لعبده الذي تاب إليه، يحبه ثم يقذف له المحبة في قلوب عباده(١).

وكم لهذين الاسمين "رحيم ودود" من أثر عظيم عجيب على قلب المؤمن، وهو يدرك بعقله، ويشعر بقلبه عظمة ربه وجلاله وكماله وغناه عن خلقه، قال عن نفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، وقال عن نفسه سبحانه في الحديث القدسي: «..يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ..» الحديث(٢).

---

(١) ينظر: موسوعة التفسير المأثور (١١/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ١٧ ط التركية) ح(٢٥٧٧).

وقال عن عبادة ملائكته له ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقال عن عبادتهم له في السماء كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ.."[(١)].

وقال عن سجود المخلوقات له: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩-٥٠].

ومع هذا الغنى التام عن عباده إلا أنه يرحمهم إذا تابوا إليه، ويتودد إليهم، فيحبهم ويحبونه، مع كمال غناه عنهم، وأي فضل أعظم من هذا الفضل فله الحمد والمنة.

"العزيز الرحيم".

وذكر هذين الاسمين ١٣ مرة، ومنها:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٢] وتكررت في سورة الشعراء ٨ مرات تعقيباً على قصص الأمم السابقة.

«{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي امتنع بقدرته، عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق. {الرَّحِيمُ} الذي الرحمة وصفه ومن آثارها، جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما لا نهاية له. ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته، أن نجى أولياءه ومن اتبعهم من المؤمنين»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥/ ٤٠٥ ط الرسالة)ح(٢١٥١٦)، وسنن الترمذي (٤/ ٥٥٦ ت شاكر)ح(٢٣١٢)، وسنن ابن ماجه (٢/ ١٤٠٢ ت عبد الباقي) ح(٤١٩٠) وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه الألباني وغيره.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٥٩٧).

وذكر الله صفة الرحمة في آيات كثيرة منها:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۚ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآية.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

اسم الله جل جلاله "الملك".

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

قال السعدي رحمه الله في معناها: «أي: تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسموات والأرض»[(١)].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ..﴾ [الحشر: ٢٣]الآية .

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [التغابن: ١] الآية.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ﴾ [الزمر: ٦] الآية .

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [المؤمنون: ١١٦] الآية.

وقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [طه: ١١٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٨٧٥).

فملك العالم العلوي والسفلي كله بيده، يفعل ما يشاء ويقضي ما يريد، الأمر أمره وملك السموات والأرض وما فيهما وما عليهما كله بيده وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى في تدبيره وتصريفه لملكه: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قال السعدي في تفسير هذه الآية:«أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ يغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشئون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالى وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان»[1].

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٨٣٠).

وأخبر في ١٨ آية أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، منها قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥].

اسم الله جل جلاله "القوي العزيز".

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وختم في آيتين بقوله تعالى: ﴿قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ وفي آيتين ﴿لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

وذكر في آية واحدة ﴿قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ﴾ كقوله (١) تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٧-٨].

وقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال لله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]»(١).

« ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع، ولا يبدل، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

(١) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٥/ ٤٣٦).

ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١-٥٢] وقال ها هنا ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١] أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه. وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة»[(١)].

(١) تفسير ابن كثير - ت السلامة (٨/ ٥٣-٥٤).

اسم الله جل جلاله "القدير".

قال السعدي رحمه الله في معنى: «"القدير" كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له "كن فيكون"، وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد»(١).

ختم آية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وختم آية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وختم الله ٣٥ آية بقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولا شك أن ختم كل آية بهذا الاسم له ارتباط وثيق بمعنى الآية، وفي مجموع هذه الآيات وغيرها إثبات قدرة الله المطلقة الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فسبحانه من ملك قادر مقتدر، فعلق قلبك به، وكن على يقين وثقة بوعده وقدرته، فانه وحده الذي يملك كل شيء، ويقدر على كل شيء، يقدر على رزقك من حيث لا تحتسب، ويقدر على شفاء مرضك الذي عجز عنه الأطباء، وهو وحده الذي يقدر على هداية أهلك، وهو وحده الذي يقدر على أن يفرج كربك ويفتح لك الأبواب المغلقة، وهو الملك المالك لكل شيء وهو على كل شيء قدير سبحانه وبحمده، وتامل معي في بيان قدرة الله في هذا الحديث العظيم، عنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٩٤٧).

عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[١].

نقل ابن رجب عن ابن الجوزي قوله في هذا الحديث:" تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش، ثم قال: وا أسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلة الفهم لمعناه؟!"[٢].

وذكر أنه ﴿ٱلْقَادِرُ﴾ في أكثر من آية، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٦٧) ح(٢٥١٦) قال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٥٩) ح(٥٣٠٢).

(٢) مجموع رسائل ابن رجب (٣/ ٩٣).

اسم الله جل جلاله "الحي القيوم".

وذكر الله اسم "الحي القيوم" مقترناً في ثلاثة مواضع في كتابه.

في آية الكرسي ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [الآية: ٢٥٥].

في سورة آل عمران ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [الآية: ٢].

وفي سورة طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [الاية: ١١١].

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم: " اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي سُوَرٍ ثَلَاثٍ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطه "(١).

قال السعدي رحمه الله عن هذين الاسمين: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ «هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى»(٢).

وممن أختار أنه الاسم الأعظم شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم عليهما رحمة الله.

قال ابن تيمية: «ولهذا كان أعظم آية في القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهو الاسم الأعظم»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٥/ ٢٥ ت الأرنؤوط)ح(٣٨٥٦)، وصححه المحقق، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٢٢٨)ح(٩٧٩). وقال أبو امامة رضي الله عنه: «فالتمستها، فوجدتُ في البقرة في آية الكرسي: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}، وفي آل عمران [٢]: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}، وفي طه [١١١]: {وعنت الوجوه للحي القيوم}» كما في موسوعة التفسير المأثور (٤/ ٤٦٠).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص١١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣١١).

وقال ابن القيم مرجحاً أنه اسم الله الأعظم: "فإنَّ صفةَ الحياة متضمِّنةٌ لجميع صفات الكمال، مستلزمةٌ لها؛ وصفةَ القيُّوميَّة متضمِّنةٌ لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى هو اسم الحيِّ القيُّوم"(١).

ومن العلماء المعاصرين رجح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله أن "الحي القيوم: هما اسم الله الأعظم، حيث قال: "فمن أسمائه تعالى (الحي القيوم) وهو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى"(٢).

ومن أدعية السنة المرتبطة بهذين الاسمين:

١- عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ: " مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ، وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ"(٣).

٢- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم جَالِسًا فِي الْحَلْقَةِ وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ، فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ فِي دُعَائِهِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، يَا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، إِنِّي أَسْأَلُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: " أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا اللهَ؟ " قَالَ: فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى "(٤).

---

(١)زاد المعاد في هدي خير العباد – ط عطاءات العلم (٤/ ٢٩٢).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٦/ ١٧٠).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ط الرسالة (٩/ ٢١٢) ح(١٠٣٣٠) ، والبزار في مسنده (١٣/ ٤٩)ح(٦٣٦٨)، وصححه الحاكم(١/ ٧٣٠)ح(٢٠٠٠) وأقره الذهبي، وقال المنذري في الترغيب والترهيب للمنذري – ت عمارة (١/ ٤٥٧):" رواه النسائي والبزار بإسناد صحيح"، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ١١٧)ح(١٧٠٠٨):"رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير عثمان بن موهب، وهو ثقة"، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤١٧) ح(٦٦١).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١/ ١٩٢ ط الرسالة)، وقال عنه محقق المسند حديث صحيح.

٣- عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، ثَلَاثًا غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحْفِ»(١).

وهنا نقف مع انفسنا لنرى أثر هذين الاسمين علينا في قلوبنا وعلى جوارحنا، وهذا المطلوب، فحينما نردد الأذكار والأدعية السابقة بقلب حاضر يتدبر معنى ما يقوله، فكم ستسكب في قلوبنا من الطمأنينة، وصدق التوكل، والفرار إلى الله، وتعلق القلب به، مما ينعكس أثره على حياتنا كلها في سائر تعاملاتنا مع الله تعالى، ثم في سائر تعاملاتنا مع خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى عن نفسه في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وذكر الله تعالى التحذير من الظلم للنفس وللغير، وربط ذلك بيوم القيامة مع هذين الاسمين، وفي المقابل لا ينبغي للمؤمن الذي عمل الصالحات أن يخاف في يوم القيامة على نفسه بنقص شيء له، فقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١١-١١٢].

---

(١) وصححه الحاكم بهذا اللفظ (٢/ ١٢٨ ط العلمية)ح(١٨٨٤) ووافقه الذهبي، وهو في سنن أبي داود والترمذي وصححه الألباني.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "وقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء..وفي الصحيح: "إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة"(١).

والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو مشرك به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي: لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد.

فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص»(٢).

كما قال تعالى أنه يزيد عبده المؤمن الذي عمل الصالحات ولا ينقصه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وأنه يحاسب عباده حساباً دقيقاً: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

---

(١) أخرجه أحمد وغيره بهذا اللفظ (١١/ ٤٢٨ ط الرسالة)ح(٦٨٣٧)، وورد في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وهذا لفظ البخاري.

(٢) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٥/ ٣١٨).

وانظر إلى حال الغافلين في يوم القيامة: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

اسم الله جل جلاله "الصمد".

ذكره الله مرة واحدة في سورة الإخلاص.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معناه: «السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد عظم في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته، لا تنبغي إلا له»(١).

قال السعدي رحمه الله في معناه: «الصمد: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضروراتها وأحوالها، لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله»(٢).

لا إله إلا الله كم نحن بحاجة ماسة جد ماسة؛ لتذكر معاني أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الجليلة، وربط القلوب بها ليكون تعلقها بربها فتستشعر معاني عظمته، ونعوت جلاله، وصفات كماله المطلق، فتخشع وتخضع له لتقدره القلوب حق التقدير، فحينئذ تعظمه حق التعظيم، سبحان الله العظيم وبحمده.

(١)تفسير الطبري جامع البيان – ط هجر (٢٤/ ٧٣٦).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٩٤٥).

السبب الثاني: ترسيخ توحيد الألوهية في القلب مع الحرص الشديد على صفاء التوحيد ونقائه من الشرك بكل أنواعه والبعد عن كل ذرائعه الموصلة إليه.

وقد سبق شيء من الكلام في هذا الموضوع المهم جداً عن ضد التوحيد وهو الشرك، ولكن يبقى هنا أن أشير إلى بعض التنبيهات المهمة في إشارات سريعة.

أولاً: لا إله إلا الله منهج حياة متكامل ينبغي أن تصبغ كل جوانب حياة المسلم بها وذلك بالالتزام بمقتضياتها ولوازمها وشروطها، واجتناب نواقضها، فلا إله إلا الله ليست كلمة تردد فقط بدون الالتزام بالشروط واجتناب النواقض، فكثير من الناس يجهل هذه الحقيقة التي فهمها الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ورفضوا أن يقولوها؛ لعلمهم بأن لا إله إلا الله لها مقتضيات ولوازم لا تنفع قائلها إلا بها، فقال الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وقال لهم قولوا: لا إله إلا الله[1]، فردوا على النبيﷺ ورفضوا أن يقولوها ، كما ذكر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

ومن تقدير الله حق قدره معرفة وزن كلمة التوحيد وأثرها على من يقولها في صبغ حياته في كل جوانبها لتكون على ما يحبه الله ويرضاه، وذلك بتحقيق شروطها والعمل بمقتضياتها ولوازمها واجتناب نواقضها.

ثانياً: من أعظم دلائل تقدير العبد لربه حرصه واهتمامه بعقيدة التوحيد أولاً وآخراً، وذلك يثمر له ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة.

---

(١) وفي سنن الترمذي (٥/ ٣٦٥ ت شاكر) ح(٣٢٣٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ فَجَاءَتْهُ قُرَيْشٌ، وَجَاءَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَعِنْدَ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كَيْ يَمْنَعَهُ قَالَ: وَشَكَوْهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ». قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ: «كَلِمَةً وَاحِدَةً» قَالَ: " يَا عَمِّ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " فَقَالُوا: إِلَهًا وَاحِدًا مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ. قَالَ: فَنَزَلَ فِيهِمُ القُرْآنُ: {ص وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [ص: ٢]- إِلَى قَوْلِهِ - {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} [ص: ٧]. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

إن من الدلائل العظيمة على صدق العبد في تقديره لربه، حرصه الشديد على سلامة عقيدة التوحيد من شوائب الشرك، واهتمامه بها اهتماماً عظيماً، وذلك سيثمر له ثمرات عظيمة في الدنيا وفي الآخرة، فسلامة إيمان العبد من الشرك، سبب الأمن في الدنيا والآخرة، والاهتداء التام في كل الأمور، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، والظلم هنا هو ضد التوحيد، وهو الإشراك بالله كما فسره النبي ﷺ: عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه[١] قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ {يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}»[٢].

ثالثاً: الإشراك بالله من أعظم الدلائل على عدم تقدير الله حق قدره.

ولهذا نزه الله نفسه عن الشرك في خاتمة الآية التي تحدث فيها عن عدم تقديرهم لله، فقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[الزمر: ٦٧].

وذكر سبحانه وتعالى في بيان حال المشرك مع الله في شدة ضعفه وضعف من يشرك به من دون الله، ثم ختم ببيان عدم تقديرهم لله بسبب وقوعهم في الشرك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

---

(١) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ١٨ ط السلطانية)ح(٦٩٣٧).

رابعاً: من علامة تقدير العبد لربه سده لكل ذرائع الشرك والطرق الموصلة إليه.

ولأهمية هذا الأمر عقد الإمام محمد بن عبد الوهاب بابين في كتاب التوحيد سمى الأول:باب: ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم

جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.

وسمى الثاني: باب ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم

حمى التوحيد وسده طرق الشرك.

وذكر في الباب الأول النصوص الآتية:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَيَدْخُلُ فِيهَا، فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ.

وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَمَا كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي «المخْتَارَةِ»

وذكر في الباب الثاني النصوص الآتية:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه قَالَ: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: السَّيِّدُ اللَّهُ، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ نَاساً قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا! وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عز وجل» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

قال السعدي رحمه الله: «والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال، فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك، فإنه يتعين اجتنابه ولا يتم التوحيد إلا بتركه»[1].

وكلما زاد تقدير العبد لربه حرص على حماية توحيده وسده لكل أبواب الشرك وطرقه الموصلة إليه، وخوفه الشديد على توحيده من كل ما يخدش في صفائه ونقائه.

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد ط النفائس (ص١٨٩).

السبب الثالث: ترسيخ معاني توحيد الربوبية في القلب، وربطه بتوحيد الألوهية.

وهذا الباب من أعظم الأسباب المعينة على تقدير الله حق قدره من خلال، وذلك من خلال الآتي في لمحات سريعة.

اليقين التام بربوبية الله تعالى والإيمان الحق بذلك، مع الشعور بأثر ذلك في القلب، ولذلك عدة أمثلة، ومنها:

١- **الإيمان الحق واليقين التام بأن الله هو الخالق؛ ولهذا هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وقد ذكر الله في كتابه كثيراً الآيات التي ربط فيها بين عبودية الله وحده لا شريك له، و بين أنه الخالق، فقال سبحانه:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

٢- **الإيمان الحق التام بأن الله هو الرازق الذي بيده مفاتيح الرزق يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، عطاؤه ومنعه لحكمة يعلمها ﷻ، وأنه المستحق وحده لا شريك له للعبادة، فقال تعالى:** ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ

فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]

وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك: ٢١-٢٢].

٣- **الإيمان الحق واليقين التام بأن الله هو المحيي والمميت لا شريك له ذلك، فقال تعالى:** ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦-٢٧].

٤- **الإيمان الحق واليقين بأن الله هو النافع الضار لا شريك له في ذلك، فقال تعالى:** ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

٥- **الإيمان الحق واليقين التام بأن الملك التام والتصرف المطلق في هذا الكون هو لله تعالى لا شريك له في ذلك، فقال تعالى:** ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٣-١٥].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

السبب الرابع: الإيمان بحقائق اليوم الآخر.

ومن الأسباب العظيمة التي تجعل العبد يقدر الله حق قدره إيمانه الحق بحقائق اليوم الآخر من أوله عند الموت إلى دخول الجنة ودخول النار، وما بين ذلك من نعيم القبر وعذابه، والبعث، وأهوال القيامة، والحساب والجزاء، والميزان، والصراط، وغير ذلك من تفاصيل ما يحدث في ذلك اليوم، وما بعده من التفصيل في نعيم الجنة، وفي المقابل التفصيل في عذاب النار.

وكل هذه الحقائق العظيمة الجليلة معروضة في كتاب الله وسنة النبي ﷺ بتفاصيل دقيقة جداً يصعب حصرها، إنما نشير بعض الإشارات السريعة في ذلك:

أولاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥-١٦].

ثانياً: وقفة مع حديث البراء بن مالك رضي الله عنه عن أحوال الناس عند موتهم:

قَالَ البراء رضي الله عنه: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ». قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا- عَلَى مَلَإٍ

مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِ» الحديث[1].

ثالثاً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٠/ ٤٩٩) ح (١٨٥٣٤)، والحاكم (١/ ٩٣) ح (١٠٧) وصححه ووافقه الذهبي، وقال في مجمع الزوائد(٣/ ٥٠) ح (٤٢٦٧): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٤٤) ح (١٦٧٦)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند (٣٠/ ٥٠٣) ح (١٨٥٣٤): "إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح".

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

وانظر إلى حال الغافلين عن هذا الإحصاء الدقيق من الله كيف يكون حالهم إذا عاينوا ذلك بأعينهم، وقد ذكر حالهم في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝٤٨ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

رابعاً: وقفة مع السور الثلاث التي ترى من خلالها مشاهد القيامة كأنها رأي عين، وهي التكوير والانفطار والانشقاق.

يَقُولُ ابْنَ عُمَرَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ"(١).

وإليك هذه السور لتحرك قلبك بتلاوتها وتدبرها وتكرار ذلك حتى يستشعر القلب مواقف القيامة كأنه يراها بعينه ويعايش أحداثها:

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٣٣ ت شاكر)ح(٣٣٣٣)، والحاكم (٤/ ٦٢٠ ط العلمية)ح(٨٧١٩) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٢/ ١٠٧٩)ح(٦٢٩٣).

[سورة التكوير]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩ .

[سورة الانفطار]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩.

[سورة الانشقاق]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤.

خامساً: وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

قال السعدي في تفسيره لهاتين الآيتين: «وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكما حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورود، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد، ينجي الله المتقين. وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما. وقيل: الورود، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كل بحسب تقواه، ولهذا قال: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا} الله

تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحظور {وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ} أنفسهم بالكفر والمعاصي {فِيهَا جِثِيًّا} وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب»[١].

سادساً: وقفة مع البشارات لأهل الإيمان والعمل الصالح في ذلك اليوم العظيم.

قال تعالى عن البشارات لأهل الإيمان والعمل الصالح أهل الاستقامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٣-٣٩].

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٤٩٨).

ويقول الله عنهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣].

وفي الحديث القدسي الذي في الصحيحين: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[(١)].

وعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هَذِهِ الْآيَةَ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، وَقَالَ: " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللَّهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ – يَعْنِي إِلَيْهِ – وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ "[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٥١ ط السلطانية)ح(٧٥١٨)، ومسلم (٨/ ١٤٤ ط التركية)ح(٢٨٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣١/ ٢٧٠ ط الرسالة)ح(١٨٩٤١)، وسنن ابن ماجه (١/ ٦٧ ت عبد الباقي)ح(١٨٧) وصححه الألباني ومحقق المسند.

ومن كمال نعيمهم أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد، كما في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَئِسُوا أَبَدًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }»[1].

هذه حال أهل الإيمان والعمل الصالح جعلنا الله منهم.

سابعاً: وقفة مع أحاديث أقل أهل الجنة نعيماً، وقياس ما يعطى في الجنة من عظيم النعيم على أدنى أهل الجنة نعيماً:

- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ»، قَالَ: «فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا -أَوْ: إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا-»، قَالَ: «فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي -أَوْ: أَتَضْحَكُ بِي- وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟!»، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: «فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً»[2].

- وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا

---

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١٤٨ ط التركية)ح(٢٨٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١١٧) ح (٦٥٧١)، ومسلم(١/ ١٧٣) ح (١٨٦).

يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟! قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟»، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»(١).

- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً رَجُلٌ صَرَفَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ، وَمَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَكُونُ فِي ظِلِّهَا»، وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَلَمْ يَذْكُرْ: «فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟» إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ، وَزَادَ فِيهِ: «وَيُذَكِّرُهُ اللهُ: سَلْ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللهُ: هُوَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ»، قَالَ: «ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فَتَقُولَانِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا، وَأَحْيَانَا لَكَ»، قَالَ: «فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ»(٢).

- وعن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ يُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ يرفعه إلى النبي ﷺ قَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٧٤) ح (١٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٧٥) ح (١٨٨).

«سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟! فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، قَالَ: «وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الْآيَةَ [السجدة: ١٧]»[(١)].

كل هذه الأدلة تقرب لنا شيئاً من نعيم الجنة، وذلك بقياس ما يعطى أقل أهل الجنة منزلة على أعلاهم في المنازل العالية.

ثامناً: وقفة مع أهل الحسرات –ونسأل أن يعيذنا منهم– الذين لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر، فتتوالى عليهم الحسرات في كل مراحل حياتهم الأخروية.

حالهم عند الموت كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٧٦) ح (١٨٩).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

واسمع إلى حسرتهم عند الموت وهم يطلبون من الله طلباً لا يتحقق لهم فيزيدهم حسرة على حسرتهم، فيقول الله تعالى عنهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ويقول تعالى عن طلب لهم آخر في عرصات القيامة لا يجابون عليه، بل يجابون بما يزدهم حسرة على حسرتهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

ويأتيهم بقوله تعالى لهم: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

ومن طلباتهم في النار التي يجاب عليها بما يزيد حسرتهم، فيقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

ويقول تعالى عن طلب من طلباتهم الكثيرة، فيجيبهم الله بما يقطع هذه الطلبات فلا يطلبون منه بعد ذلك شيئاً: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:

١٠٣-١٠٨]، ثم يبين لهم بعض ما علموا في الدنيا بأوليائه المؤمنين الذين عملوا الصالحات، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١١].

ثم يتوجه إليهم ﷻ بهذا السؤال ليزيد حسرتهم: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢]، فيجيبون على السؤال والحسرة تقطع قلوبهم،﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، ثم يجبههم بهذا الجواب الذي يجعل الحسرة تقطع قلوبهم، فيقول تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٤-١١٦].

وقال تعالى في بيان حسرتهم، وهم يقولونها بألسنتهم: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال تعالى محذراً عباده حتى لا يقعوا في أسباب الحسرة فيقولها في وقت لا تنفع فيه الحسرات إنما تكون زيادة في العذاب: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٦٠].

ومظاهر حسراتهم في الآخرة كثيرة في كتاب الله، ونكتفي بما سبق.

تاسعاً: ذكر شدة عذاب النار أهل النار كما ورد في السنة، وتقريب ذلك من خلال الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: قياس نار الآخرة بنار الدنيا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ.

قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»[١].

الوقفة الثانية: مع أقل أهل النار عذاباً؛ ليقاس بذلك على ما هو أشد منه:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ »[٢].

وفي الصحيحين وهذا لفظ مسلم، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا »[٣].

الوقفة الثالثة: ومما يدل على هول عذاب النار أجسام أهلها الكبيرة جداً ليذوق العذاب في كل جزء من أجزاء جسدهم، ودونك نصوص من السنة على ذلك:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: « ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ»[٤].

---

(١) صحيح مسلم (٨/ ١٤٩ ط التركية)ح(٢٨٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٣٥ ط التركية)ح(٢١١).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٣٦ ط التركية)ح(٢١٣).

(٤) صحيح مسلم (٨/ ١٥٤ ط التركية)ح(٢٨٥١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: " ضِرْسُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ الْبَيْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ كَمَا بَيْنَ قُدَيْدٍ إِلَى مَكَّةَ، وَكَثَافَةُ جِلْدِهِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْجَبَّارِ "(١).

وفي رواية عند الترمذي «وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ مِثْلُ الرَّبَذَةِ»(٢).

وفي رواية عند الإمام أحمد «وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مِثْلُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّبَذَةِ»(٣).

وفي رواية عند الترمذي" وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ" هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ(٤).

الوقفة الرابعة: ومما يدل على عظيم عذاب أهل النار ما ورد من أحاديث تبين ماذا ما يحدث من ضرر بسبب قطرة واحدة من شرابهم وأكلهم.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟»(٥).

الوقفة الخامسة: لو أن رجلاً من أهل النار تنفس لأحرق من حوله.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لو كانَ في هذا المسْجِدِ مِئَة ألفٍ أوْ يَزيدونَ، وفيهم رجلٌ مِنْ أهْلِ النارِ فتَنفَّس، فأصابَهُم نَفَسُهُ؛ لاحْتَرَق المسْجِدُ ومَنْ فيه"(٦).

---

(١) مسند أحمد (١٦/ ٥٤٣ ط الرسالة)ح(١٠٩٣١) وقال المحقق: "حديث صحيح بطرقه".

(٢) سنن الترمذي (٤/ ٧٠٣ ت شاكر)ح(٢٥٧٨)وقال: "حديث حسن غريب" وحسنه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي.

(٣) مسند أحمد (١٤/ ٨٧ ط الرسالة)ح(٨٣٤٥) وقال محقق المسند: "إسناده حسن" .

(٤) سنن الترمذي (٤/ ٧٠٣ ت شاكر)ح(٢٥٧٧) وصححه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي، وصحح إسناده محقق المسند(١٦/ ٥٤٤ ط الرسالة) في ذكره له ضمن الشواهد.

(٥) مسند أحمد (٤/ ٤٦٧ ط الرسالة)ح(٢٧٣٥)، وسنن الترمذي (٤/ ٧٠٧ ت شاكر)ح(٢٥٨٥) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وسنن ابن ماجه (٢/ ١٤٤٦ ت عبد الباقي)ح(٤٣٢٥)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ٣٢٢ ط العلمية)ح(٣١٥٨) وصححه ووافقه الذهبي، وصحح إسناده محقق المسند.

(٦) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤٧١)ح(٣٦٦٨).

الوقفة السادسة: إن ما يحدث من شدة حر أو برد في الأرض إنما هو من نفس النار.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ»[1].

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٢٠)ح(٣٢٦٠)، وصحيح مسلم (٢/ ١٠٨ ط التركية)ح(٦١٧).

السبب الخامس: الصلاة الخاشعة.

إن الصلاة الخاشعة من أولها إلى آخرها تغرس وترسخ في القلب عظمة الله وتقديره حق قدره، ودونك بعض الدلائل على ذلك.

أولاً: المشي إلى الصلاة عبادة عظيمة، يظهر من خلالها تعظيم الله في القلب، فعن أَبَي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ، عَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[١]. وفي الرواية الأخرى يقول المصطفى ﷺ: «وَلَكِنْ لِيَمْشِ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ» الحديث[٢].

وفي معنى السَّكِينَة وَالْوَقَار قال النووي رحمه الله: "قيل: هما بمعنى[٣]، وجمع بينهما تأكيدًا، والظاهر أن بينهما فرقًا، وأن السكينة التأني في الحركات، واجتناب العبث، ونحو ذلك، والوقار في الهيئة، وغض البصر، وخفض الصوت، والإقبال على طريقه بغير التفات، ونحو ذلك والله أعلم"[٤].

وفي هذا والله أعلم تنبيه على الشعور بعظمة الموقف بين يدي الله، وأن العبد في طريقه إلى الصلاة يهيئ نفسه في مشيه إلى الصلاة لهذا الموقف العظيم بين يدي الله، فهو في صلاة من حين خروجه لدخول بيت الله وللوقوف بين يديه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلَاةِ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري(٢/ ٧) ح (٩٠٨)، ومسلم(١/ ٤٢٠) ح (٦٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٤٢١) ح (٦٠٢).

(٣) أي: بمعنى واحد.

(٤) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٠٠).

(٥) أخرجه مسلم (١/ ٤٢١) ح(٦٠٢).

ويمشي إلى الصلاة وهو يدرك بقلبه، ويشعر من داخل نفسه بهذا الأمر العظيم الذي سيحدث عند خروجه من بيته، وقدومه لبيت الله، ألا وهو فرحة الله بقدومه إلى المسجد، واستبشاره بذلك، وهو الغني الحميد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: " لَا يُوطِنُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ بِهِ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ، كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ "(١).

ومعناه أن الله يفرح فرحاً يليق بجلاله وعظمته بقدوم عبده إلى بيت الله المسجد، كما يفرح أهل الغائب بقدومه عليهم، ويسرون بذلك سروراً كبيراً، إن هذا الفرح من الله بعبده إذا قدم إلى المسجد، يزيد من شوق العبد إلى لقاء الله في بيته، وكلما كان تعظيم الله في القلب كبيراً، زاد شوق العبد إلى المسارعة للقاء الله في بيته، ولا يشغله عن ذلك شاغل مهما كانت أهميته؛ لأنه يحب الله حباً عظيماً، فهو يشتاق إلى المسجد، بل قلبه معلق به من شدة حبه لبيت الله، وكما في الحديث المتفق على صحته عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.. » وذكر منهم: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ»(٢)، وكيف وهو يدرك بقلبه وشعوره وإحساسه أن الله يفرح بلقائه إذا قدم إلى بيته.

لكن هذه المعاني العظيمة تضعف بل قد تذهب إذا تحول الذهاب إلى المسجد مجرد عادة تعود عليها لا يشعر بهذه المعاني فيها، فهو قد يتخلف عن المسجد لأقل الأعذار، فلو عظم الله حق التعظيم وقدره حق التقدير لتشوق إلى المسجد مع كل صلاة، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥/ ٥٢٣ ط الرسالة)ح(٩٨٤١)، وقال محققه: "رجاله ثقات رجال الشيخين" وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٣٣ ط السلطانية) ح(٦٦٠)، صحيح مسلم (٣/ ٩٣ ط التركية) ح(١٠٣١).

ثانياً: من مواطن تعظيم الله عند سماع النداء إلى الصلاة، فقد كان السلف يعظمون أمر الأذان لأنه يذكرهم بيوم القيامة، ويوم ينادي في ذلك اليوم للخروج، قال تعالى:

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [ق: ٤١-٤٢].

"وقد روى ابن أبي الدنيا في "كتاب الرقة والبكاء" بإسناده، عن يحيى البكاء، عن الحسن، قال: إذا اذن المؤذن لم تبق دابة بر ولا بحر الا اصغت واستعمت.

قال: ثم بكى الحسن بكاء شديداً.

وبإسناده، عن أبي عمران الجوني، إنه كان إذا سمع الاذان تغير لونه، وفاضت عيناه.

وعن أبي بكر النهشلي نحو - أيضاً -، وانه سئل عن ذلك، فقال: اشبهه بالصريخ يوم العرض..

وحكى مثل ذلك من غيره من الصالحين - أيضاً.

وعن الفضيل بن عياض، أنه كان في المسجد، فأذن المؤذن، فبكى حتى بل الحصى، ثم قال: شبهته بالنداء، ثم بكى"[1].

فهذه قلوب خائفة وجلة من الله عند سماع ذكره، وهم ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى في أول صفات المؤمنين حقاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]الآيات، وقال تعالى في أول صفات المخبتين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥] الآية.

ثالثاً: وكانوا أيضاً يستحضرون عظمة الموقف بين يدي الله في صلاتهم، لأنه يذكرهم بعظمة الموقف بين يدي الله يوم القيامة، ذلك الموقف المهيب، ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦]:

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٣٠١).

كان علي بن الحسين الملقب بزين العابدين إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الخوف، فقيل له في ذلك فقال: ألا تدرون بين يدي من أريد أن أقوم ولمن أناجي؟[١].

و"كَانَ عَطَاءٌ السَّلِيمِيُّ إذا فرغ من وضوئه انتفض وارتعد وبكى بكاء شديداً، فيقال له في ذلك فيقول: إني أريد أن أقدم على أمر عظيم، أريد أن أقوم بين يدي الله عز وجل"[٢].

رابعاً: عند تكبيرة الإحرام والشعور بعظمة الموقف بين يدي الله، وتذكر معنى "الله أكبر" ينطق بلسانه مع حضور قلبه في صلاته، ولابد من وقفة مع الذكر العظيم الذي يتكرر في كل انتقال في الصلاة ما عدا الرفع من الركوع والتسليم.

ما أثر تكرار هذا الذكر "الله أكبر" في صلاتنا على قلوبنا،؟هل نشعر ونحن نكرر "الله اكبر" بزيادة تعظيم الله وتقديره حق التقدير؟

أم أن حُجُب الغفلة رانت على القلوب، فذهب منها التأثير والتأثر، وتحولت ألفاظ الذكر إلى مجرد كلمات تردد لا يدرك معناها، وليس لها تأثير في حياة من يرددها في صلاته عشرات المرات في يومه وليلته، فإلى الله المشتكى من حال قلوبنا، ونسأله تعالى أن يصلح فساد قلوبنا.

رويدك أخي المسلم إن الصلاة جنة وارفة الظلال نهرع إليها في يومنا وليلتنا؛ لنلقي عن كواهلنا أثقال الهموم، ونبث شكوانا إليه؛ وليكون بيننا وبين ربنا ﷻ لقاء خاص تعرج فيه القلوب إليه، وتقف بين يديه ذاكرة وتالية ومتملقة له في الدعوات ترجوا رحمته التي وسعت كل شيء وتخشى عذابه، فهنيئاً لك أيها العبد المسلم بهذا الاصطفاء من ربك؛ لتجد لذة اللقاء والمناجاة، فتنشرح الصدور، ويقرب العبد من ربه، فإذا وفق الله إلى مجاهدة نفسك، وأعانك على حضور قلبك، فحينها تتنقل عبادة الصلاة إلى إقامة الصلاة والقرب من الله

---

(١) ينظر: البداية والنهاية(١٢/ ٤٨٢).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٢١٨).

وعندئذ تكون الصلاة راحة للعبد وقرة عين يسارع ويسابق إليها، ويجد فيها اللذة ويشعر فيها بعظمة من يقف بين يديه، فيقدره حق قدره في صلاته.

خامساً: أثر سماع سورة الفاتحة من الإمام حين يتلوها في الصلاة الجهرية، وأثر تلاوتها من قبل العبد إذا قام في صلاته يناجي ربه، وبقدر تعظيم الله في القلب وتقديره حق التقدير يشعر العبد بلذة المناجاة، ويحضر قلبه بين يدي ربه وهو يخاطبه ﷻ حين قراءته لسورة الفاتحة، كما في الحديث «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] ، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»(١).

ولا شك أنه إذا استحضر هذا المعنى لا ينصرف قلبه عن الله إلى غيره، فإذا عظم الله في قلب العبد استحى أن ينصرف عنه وهو يناجيه، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ» الحديث(٢).

وهو هكذا مقبل على الله في صلاته من أولها إلى آخرها، فإذا أحس من نفسه انصراف عن الله عاد بقلبه على الله، واستحى من الله وخاف أن ينصرف ربه فيضيع وتكثر خسارته،

---

(١) أخرجه مسلم(١/ ٢٩٦) ح (٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٩٠) ح (٤٠٥)، ومسلم(١/ ٣٩٠) ح (٥٥١).

وفي الحديث يقول ﷺ:«فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ» الحديث(١).

ويتذكر ما أُعِدَ من فضل عظيم لمن يخشع في صلاته، ومن ذلك، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»(٢).

وعن عقبة بن عامر يَقُولُ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ(٣) الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُومُ فِي صَلَاتِهِ فَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ إِلَّا انْفَتَلَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ»(٤).

حديث عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه الطويل وفيه: قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ فَالْوُضُوءَ حَدِّثْنِي عَنْهُ، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ، وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ، وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٨/ ٤٠٥) ح (١٧١٧٠)، والترمذي واللفظ له (٥/ ١٤٨) ح (٢٨٦٣) وقال: "حسن صحيح غريب"، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٩١٤) ح (١٨٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٣٥٨) ح (٥٥٢)، وقال محقق المسند شعيب الأرناؤوط (٢٨/ ٤٠٦) ح (٥٥٢) "حديث صحيح".

(٢) أخرجه مسلم(١/ ٢٠٩) ح (٢٣٤).

(٣) وإسباغ الوضوء: إتمامه وأكماله بغسل العضو الذي يغسل ثلاثًا، وقال ابن عبد البر رحمه الله في معنى الإسباغ: "الإكمال والإتمام من ذلك قول الله ﷻ:﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ [لقمان: ٢٠]، يعني: أتمها عليكم وأكملها، وإسباغ الوضوء أن يأتي بالماء على كل عضو يلزمه غسله مع إمرار اليد، فإذا فعل ذلك مرة وأكمل فقد توضأ مرة".

ينظر: الاستذكار (٢/ ٣٠٢) لابن عبد البر.

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٢) ح (٣٥٠٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩٥) ح (١٩٠).

يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(١).

سادساً: تعظيم الله في الركوع وأثره على القلب في الشعور بعظمة الله وتقديره حق التقدير.

وهو من أعظم المواقف في الصلاة بدليل أن الله يذكره ويريد به الصلاة كاملة لأهميته واعتباره من أعظم أركان الصلاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وقال تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

وقال ﷺ:"..فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ.."(٢).

ومعنى ذلك: بأن يقول في ركوعه (سبحان ربي العظيم)، كما ذكر حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فقال رضي الله عنه: ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»(٣).

ويكرر في كل ركعة في صلاته (سبحان ربي العظيم) على الأقل ثلاث مرات، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول إِذَا رَكَعَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(٤).

فتعظيم الرب في الركوع عمل قلبي تشترك فيه الجوارح، فإذا نطق اللسان بقول: سبحان ربي العظيم، وركع المؤمن بجسده معظماً لله، وحضر القلب، وعلم العبد معاني ما يقوله في ركوعه، وفرغ قلبه لله من الانشغال بغيره وهو في هذا الموقف العظيم، وكرر (سبحان ربي العظيم) وهو يدرك بقلبه، ويشعر بعظمة الله حاضرة في قلبه ونفسه، كأنه يراه بعينه حاضر

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٦٩) ح(٨٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٣٤٨) ح(٤٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٥٣٦)ح (٧٧٢).

(٤)أخرجه ابن ماجه (١/ ٢٨٧) ح(٨٨٨) وصححه الألباني في تحقيقه لسنن ابن ماجه ح(٨٨٨).

أمامه، فإن لم يكن يراه بعينه، فهو يؤمن حقيقة أن الله يراه ولا يخفي عليه من أمره شيء، كما في حديث الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، فهو يقدر الله حق قدره ويعظمه حق تعظيمه بقلبه وجوارحه، ويدرك معنى عظمة الله ويتدبر بقلب حاضر وإحساس صادق معنى (سبحان ربي العظيم) وهو يكررها في ركعات صلاته، فلا إله إلا الله، كم لهذا الذكر من أثر على القلوب التي تدرك معناه وتفهم مراد الله منه، فتشعر بأثره وهي تردده في كل ركعة من صلاتها، لكن ما الذي حدث للقلوب!! فضعفت فيها آثار معنى هذا الذكر، وما يسكبه في القلب من غرس عظمة الله والشعور بها، والى الله المشتكى من تراكم الذنوب على القلوب فعميت عن هذه الحقائق، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ونسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا.

سابعاً: أن يشعر بمعاني ما يقوله بعد رفعه من الركوع كما جاءت بذلك النصوص منها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا قَالَ الإِمَامُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلاَئِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"(١).

وعَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ، قَالَ: "كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ "، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ: «مَنِ المتَكَلِّمُ» قَالَ: أَنَا، قَالَ: «رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ»(٢).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: " رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٥٨) ح(٧٩٦)، ومسلم (١/ ٣٠٦)ح(٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٥٩) ح(٧٩٩) بهذا اللفظ، ومسلم (١/ ٤١٩) ح(٦٠٠).

الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ "(١).

وهذه الأذكار إذا قالها المصلي بقلب حاضر متدبر يدرك معاني ما يقول أحدثت أثرها في قلبه تعظيماً وإجلالاً لله تعالى، واستشعر بقلبه عظيم نعم الله المحيطة به، فهو يحمد الله على هذا النعم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال تعالى:﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

ويتذكر قول الله تعالى:﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثامناً: قرب العبد من ربه وهو ساجد وأثره الكبير على قلبه وإثبات صفة العلو لله تعالى في ذكر السجود، والاقبال على الدعاء في سجوده مع حضور القلب والشعور بقرب الرب منه، وذلك يحدث أثره على القلوب في زيادة التقدير لله في كل صلاة، قال تعالى:﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»(٢).

وقال ﷺ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»(٣).

والسجود أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه عز وجل، حيث يجعل أشرف ما فيه من الأعضاء وأعزها عليه وأعلاها حقيقة أوضع ما يمكنه، فيضعه في التراب متعفرًا، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله عز وجل(٤).

قال ﷺ: «..وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ».

والسجود ذل وخضوع لله في القلب يظهر أثره على الجوارح، " فيضع أشرف شيء فيه وهو وجهه على التراب خشوعاً لربه واستكانة وخضوعاً لعظمته وذلا لعزته قد انكسر له

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٤٧)ح(٤٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٤٩ ط التركية) ح(٤٨٢).

(٣) أخرجه مسلم(١/ ٣٤٨) ح (٤٧٩).

(٤) ينظر: الذل والانكسار للعزيز الجبار، وهو ضمن مجموع رسائل ابن رجب(٣٠٤).

قلبه وذل له جسمه وخشعت له جوارحه"[١] ، فحين يضع العبد وجهه على الأرض بين يدي ربه يذكره ويدعوه وهو قريب من القريب الذي قال عن نفسه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقَالَ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»، والسجود والدعاء من أعظم مواقف الذل والخضوع لله المؤدي إلى خشوع القلب الذي يظهر أثره على الجوارح.

وإذا قال العبد المؤمن في سجوده (سبحان ربي الأعلى) وكررها وقلبه حاضر وهو يدرك معنى ما يقول، وفرغ قلبه لله، وتذكر قربه من ربه في هذا الموقف، وشهد بعين قلبه علو الله على جميع خلقه، وهو أقرب ما يكون إلى عبده في موقف السجود، شعر بذلة بين يدي الله وخضوع له، فناسب في هذا الحال من خضوع العبد لربه في حال سجوده أن يكرر سبحان ربي الأعلى، ليغرس في قلبه مع كثرة التكرار الشعور بعلو الله تعالى على جميع مخلوقاته علو الذات وعلو القدر والشأن وعلو القهر، كما قال تعالى عن نفسه في آيات كثيرة تثبت علو الله سبحانه، ومنها قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ﴾ [فاطر: ١٠].

والأدلة على إثبات علو الله أكثر من أن تحصر.

---

(١) مفتاح دار السعادة(٢/ ٣).

وكذلك من الآثار العظيمة للدعاء في هذا الموقف العظيم في حال سجود العبد وقربه من ربه القريب ممن دعاه، وهو أقرب ما يكون منه في سجوده بين يدي ربه كما سبق، فإذا حضرت في القلب هذه المعاني العظيمة تعلق بالله وأظهر فقره لله وشدة حاجته إليه وألح على الله في دعائه، وتملق ربه في طلب حاجته وانكسر القلب وذل بين يدي ربه، وأقبل على الله مع ذلك بحضور قلب، فإن هذه المعاني القلبية من أعظم أسباب استجابة الدعاء؛ لأن غفلة القلب عن الله في الدعاء تجعله لا يقبله، وقال ﷺ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»(١).

ثم تأمّل بعد في سائر الصلاة ستجدها من أولها إلى آخرها تغرس عظمة الله في القلب، ولكن لا يحصل ذلك إلا بحضور القلب وإدراك معاني ما يقوله وما يفعله في صلاته، مقبلاً عليها بقلبه ووجهه، يعلم ما يقول، وفرغ قلبه لله في صلاته، ولم ينشغل عنها بحديث النفس بأمور الدنيا في صلاته، فإن لهذه المعاني العظيمة أثر عظيم على تقديره لله حق قدره.

---

(١) أخرجه أحمد (١١/ ٢٣٥) ح(٦٦٥٥)، والترمذي واللفظ له (٥/ ٥١٧) ح(٣٤٧٩) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»،، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١٠/ ١٤٨)ح(١٧٢٠٣):"رواه أحمد، وإسناده حسن". وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ١٠٨) ح(٢٤٥).

وبوّب ابن خزيمة فقال رحمه الله، فقال: "باب الأمر بالخشوع في الصلاة، إذ المصلي يناجي ربه، والمناجي ربه يجب عليه أن يفرغ قلبه لمناجاة خالقه ﷻ، ولا يشغل قلبه التعلق بشيء من أمور الدنيا يشغله عن مناجاة خالقه"(١).

ومن أراد زيادة التوسع في أمر الخشوع في الصلاة فليراجع بعض ما كتبته على الشبكة مثل: أثر عمل القلب على عبادة الخشوع في الصلاة.

وكذلك يوجد بعض الفوائد المتعلقة بالخشوع في كتاب التعليقات السنية ط دار الرشد.

(١) أخرجه ابن خزيمة (١/ ٢٧٠).

السبب السادس: تدبر آيات القرآن العظيم، وبالأخص الآيات التي تتحدث عن عظمة الله وقوته وقدرته.

وهنا أحب أن الخص بعض الأمور المعينة على تدبر القرآن الذي يؤدي إلى تعظيم الله حق التعظيم وتقديره حق التقدير [١].

أولاً: إخلاص النية لله تعالى في تلاوته وتدبره، والحذر من الخلل في ذلك، فإن من أعظم عوائق التدبر الخلل في المقاصد والنيات، ويكفي في بيان خطر هذا الأمر الحديث الآتي:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"[٢].

---

(١) وللتوسع في هذا يراجع كتابي على الشبكة: أثر عمل القلب على تلاوة القرآن وتدبره.

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٣) ح(١٩٠٥).

ثانياً: ومما يعين على التدبر كثرة التوبة والاستغفار التي تنقي القلب من آثار الذنوب والمعاصي.

لأن الذنوب تعمي القلب فلا يبصر الحقائق، ويضيق من القرآن وينفر منه، ويعمى عن هداياته، فلا يرى النور الذي فيه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وكما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ[١] فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ[٢] قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين: ١٤]»[٣].

وكذلك فتن الشبهات والشهوات إذا عرضت على القلب وتشربها فإنها تعميه عن الحق، وعن نور القرآن، فلا يقبل ما فيه من الهدى بل ينقلب قلبه فلا يقبل إلا الهوى، وينفر من الحق والهدى، كما في حديث حذيفة ﷺ، يَقُولُ ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ

---

(١) أي نُقِطَ نقطة في قلبه.

ينظر: الصحاح (١/ ٢٦٩)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١١٤) مادة (نكت).

(٢) وفي بعض روايات الحديث: "سُقِلَ" بالسين، والسقل والصقل بمعنى واحد، أي: جلاه ونظفه وصفاه وذهب عنه أثر الذنب.

ينظر: الصحاح (٥/ ١٧٤٤) مادة (صقل)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦٢٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٣/ ٣٣٣) ح (٧٩٥٢)، والترمذي واللفظ له(٥/ ٤٣٤) ح (٣٣٣٤) وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في سننه(٢/ ١٤١٨) ح (٤٢٤٤)، وابن حبان في صحيحه(٣/ ٢١٠) ح (٩٣٠)، الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٦٢) ح (٣٩٠٨) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧١) ح (١٦٢٠)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند (١٣/ ٣٣٤) ح (٧٩٥٢): "إسناده قوي".

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا[١] كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[٢].

ولا شك أن للذنوب والمعاصي أثرًا كبيرًا في إفساد القلب، وضررها عظيم عليه، "وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟!"[٣].

وهذا الداء الخطير على القلوب الذي يفسدها ويبعدها عن كتاب ربها، ويفسد فهمها وتصورها الصحيح السليم لمعاني الآيات الذي يأتي بأثره العظيم في القلب بغرس معاني عظمة الله فيه، قد جعل الله له علاجًا، وهو الاستغفار الصادق والتوبة النصوح.

ثالثاً: كثرة الدعاء والإلحاح فيه على الله أن يرزق العبد حلاوة تلاوة القرآن والتلذذ به، واجتماع القلب عليه، وحسن تدبره والانتفاع بمواعظه.

ومما يدل على المكانة العظيمة للدعاء قول النبي ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»[٤].

وأفاد الملا على القاري رحمه الله في شرحه لهذا الحديث بأن الدعاء: "هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه،

---

(١) مربادًّا من الرُبدَةِ: لَوْنٌ يميل إلى الغُبْرَة، وهو لون يخالط سواده كدرة غير حسنة.
ينظر: الصحاح (٢/ ٤٧٢)، مقاييس اللغة (٢/ ٤٧٥) مادة (ربد).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٢٨) ح (١٤٤).

(٣) الجواب الكافي (١/ ٩٨).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٣٤٠) ح (١٨٣٩١)، وأبو داود (٢/ ٧٦) ح (١٤٧٩)، والترمذي (٥/ ٣٧٥) ح (٣٢٤٧) وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨) ح (٣٨٢٨)، والحاكم (١/ ٦٦٧) ح (١٨٠٢) وصححه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع(١/ ٦٤١) ح (٣٤٠٧)، وقال محقق المسند (٣٠/ ٣٤٠) ح (١٨٣٩١): "إسناده صحيح".

بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه، قائمًا بوجوب العبودية، معترفًا بحق الربوبية، عالمًا بنعمة الإيجاد، طالبًا لمدد الإمداد على وفق المراد وتوفيق الإسعاد"[١].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ»[٢].

ولكن على العبد أن يلح على الله في دعائه أن يجعل للقرآن العظيم أثره على قلبه بزيادة تعظيمه لله وتقديره حق قدره.

رابعاً: شعور العبد في قلبه بعظمة أثر القرآن عليه.

وقد وصف الله القرآن بأنه عظيم في أكثر من آية، فمنها:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص: ٦٧-٦٨].

ويكفي دلالة على عظمته أنه كلام الله الذي قال عنه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٥٢٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٤/ ٣٦٠) ح (٨٧٤٨)، والترمذي (٥/ ٤٥٥) ح (٣٣٧٠) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ القَطَّانِ.."، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨) ح (٣٨٢٩)، وحسن إسناده الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٥١) ح (٥٣٩٢)، وكذلك شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٥/ ٦) ح (٣٨٢٩).

وقال تعالى عنه في بيان عظيم أثره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد: ٣١] الآية.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله»(١).

ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: «يقول تعالى مبيناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ من الكتب الإلهية ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ ﴾ جناناً وأنهاراً ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ﴾ لكان هذا القرآن. ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟»(٢).

وإذا حضرت في القلب هذه المعاني التي تبين عظمة تأثير القرآن، فحينئذ يقرأ العبد الآيات التي تبين عظمة الله، فيتدبر قلبه معناها فيخشع لله ولعظمته وقوته وقدرته، فيمتلئ تعظيماً لله ويقدره حق قدره.

---

(١) تفسير ابن كثير – ت السلامة (٤/ ٤٦٠).

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٤١٨).

خامساً: لأن تدبر القرآن له أثر عظيم في غرس عظمة الله في القلب، وأنه الطريق إلى معرفة العبد لخالقه جل جلاله معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو الطريق إلى معرفة صراطه المستقيم الذي أمر العباد بسلوكه.

قال الآجري رحمه الله: «ومن تدبر كلامه، عرف الربَّ عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تَفَضُّله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فَرْضِ عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذَّره مولاه الكريم، ورغب فيما رَغَّبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وَعَزَّ بلا عشيرة، وأَنِس بما يستوحش منه غيره، وكان هَمُّه عند التلاوة للسّورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلو؟ ! ولم يكن مراده: متى أختم السّورة؟ ! وإنما مراده: متى أعقل عن الله الخطاب؟ ! متى أزدجر؟ ! متى أعتبر؟ ! لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة» اهـ [١]"[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: "وبالجملة؛ فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مئة مرة، ولو ليلة؛ فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن"[٣].

---

(١) أخلاق أهل القرآن (ص٣٦-٣٧).

(٢) الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص٢٣- ٢٤).

(٣) مفتاح دار السعادة(١/ ٥٣٥).

والآن نأتي إلى نماذج من الآيات التي لها أثر عظيم في تعظيم الله في القلب –وكل آيات القرآن العظيم كذلك– لنتدبرها حين تلاوتها ونكرر تلاوتها، أو نكرر سماعها بقلوب حاضرة، مستحضرة لعظمة الله وجلاله، وهذا التكرار له أثره العظيم على حضور القلب، وفهم ما يتلوه، وحسن تدبره له، وهو منهج نبوي، فقد ردد النبي صلى الله عليه وسلم آية في صلاة الليل حتى أصبح، يَقُولُ أبو ذر رضي الله عنه: «قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا» وَالْآيَةُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(١)].

قال ابن القيم رحمه الله:" فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مئة مرة، ولو ليلة؛ فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح.. فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب.

ولهذا قال ابن مسعود: «لا تهذوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب».

وقال ابن مسعود ـ أيضا ـ: «اقرؤوا القرآن، وحركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة».

وروى أيوب، عن أبي جمرة، قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث. قال: «لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ»"[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥/ ٣١٠)ح(٢١٣٨٨)، والنسائي (٢/ ١٧٧) ح(١٠١٠)، وابن ماجه (١/ ٤٢٩)ح(١٣٥٠)، والحاكم(١/ ٣٦٧)ح(٨٧٩) وصححه ووافقه الذهبي، وحسن إسناده محقق المسند، وحسنه كذلك الألباني في تحقيقه لسنن ابن ماجه (١/ ٤٢٩)ح(١٣٥٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٣٥-٥٣٦).

وعن عباد بن حمزة قال: "دخلت على أسماء وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، قال: فوقفت عليها، فجعلت تستعيذ وتدعو، قال عباد: فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيذ وتدعو"(١).

وعَنْ مَسْرُوقٍ، أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ رَدَّدَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحَ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١](٢).

وعَنْ هِشَامٍ الدَّسْتُوَائِيِّ، قَالَ: " لَمَّا تُوُفِّيَ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ دَخَلَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَلَى أُخْتِهِ، فَقَالَ: أَخْبِرِينَا عَنْهُ. فَقَالَتْ: قَامَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ حم، فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ [غافر: ١٨] فَمَا جَاوَزَهَا حَتَّى أَصْبَحَ "(٣)

وقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، يُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي الصَّلَاةِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١](٤).

وردد ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤](٥).

وردد أيضاً: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦](٦).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٣٠٩ ت الشثري) رقم(٦١٧٦).

(٢) الزهد لوكيع (ص٣٨٨).

(٣) حلية الأولياء(٤/ ١٥٨).

(٤) فضائل القرآن – أبو عبيد (ص١٤٨).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٨٦).

(٦) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٨٦).

وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]ردها إلى السحر(١).

ولذلك علامات تدل على حسن التدبر، ومنها:

- زيادة الإيمان في القلب الذي يظهر أثره على الجوارح بالشعور بعظمة الله وهيبته في القلوب والمسارعة والمسابقة إلى مرضات الله وجنته، ويثمر انشراح الصدر وطمأنينة القلب، كما ذكر الله في أول صفات عباده المؤمنين حقاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

- زيادة خشوع الجوارح تبعاً لزيادة خشوع القلب، والتأثر بالآيات الذي يؤدي إلى البكاء من خشية الله وتعظيمه وإجلاله، وإلى اقشعرار الجلد من خشيته، ومن ثَمَّ لين القلب والجلد لذكر الله.

قال تعالى في بيان ذلك:﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٨٦).

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

ودونك نماذج من هذه الآيات كأمثلة على ذلك، وغيرها كثير جداً في كتاب الله، بل كل كتاب الله كذلك:

أولاً: الآيات التي تذكر بالآخرة وما يحدث فيها من أهوال، وقد سبق أمثلة على ذلك، في موضوع سابق(١)، ونذكر هنا على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلٗا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

ثانياً: الآيات التي تبين عظمة الله وقوته وقدرته، وهي كثيرة في كتاب الله، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) ينظر: موضوع الإيمان بحقائق اليوم الآخر.

إن التأمل في هاتين الآيتين وفي ما يشابهها من الآيات يحدث في القلب تعظيماً لله تعالى وتقديراً له، وذلك إذا حضر القلب وأدرك معنى ما يقوله، وكرر الآيات بصوت يحسّنه بقدر ما يستطيع ويرتل الآيات ترتيلاً، أو يكرر سماعها من قارئ يقرأ بالتدبر، يشعر بأثر تلاوته على قلبه.

ثالثاً: آية الكرسي، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إن هذه الآية هي أعظم آية في القرآن كله، كما في الحديث عَنْ أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: {اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، أَبَا الْمُنْذِرِ »[1].

وتدبر هذه الآية له أثر كبير على تعظيم الله وإجلاله، فإذا أردت الشعور بذلك فاحضر قلبك لتدبر هذه الآية وكرر تلاوتها بصوت حسن، وترتيل حسن مرة تلو مرة، وحينها ستجد أثر تلاوتها على قلبك، وتشعر بزيادة إيمانك ولذة التلاوة، أو استمع إلى تلاوتها وكرر الاستماع إلى القراء الذين تشعر بتأثير تلاوتهم على قلبك.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٩ ط التركية)ح(٨١٠).

رابعاً: الآيات التي تبين عظمة تصرف الله في هذا الكون وتدبيره له وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ١-٣].

دعونا نقف ونتأمل ونتدبر ونحرك قلوبنا بمعاني هذه الآيات التي سبقت من سورة فاطر، والتي تغرس في قلب المؤمن أن المتصرف في هذا الكون هو الله وحده لا شريك له، فلا يملك أحد ذرة أو أقل من ذلك من أمر هذا الكون، وقد وصف ﷻ نفسه بهذه الصفات التي تدل على ملكه التام والمطلق لهذا الكون، وذلك يقطع شجرة الشرك من عروقها من القلوب، ويحرر القلوب والعقول من التعلق بغير الله، فهو وحده مالك الملك ومدبره لا شريك له سبحانه وبحمده.

ودعنا ننظر ونتأمل في هذه المعاني الجليلة في هذه الآيات من سورة فاطر، والتي تسكب في القلب عظمة الله وقدرته على كل شيء، وأنه المالك لكل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء:

- فهو يمدح نفسه المقدسة بخلق السموات والأرض، وما اشتملت عليه من المخلوقات، لأن ذلك دليل كمال قدرته، وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته سبحانه وبحمده.

- ثم خص من خلقه بأنه جعل الملائكة رسلاً بينه وبين أنبيائه، وبينه وبين سائر خلقه في تدبير أوامره القدرية وفي تبليغ أوامره الدينية، وذكر من عظمة خلقهم بأن لهم

أجنحة متعددة، وأنه يزيد في خلقه ما يشاء وهو على كل شيء قدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء الكل تحت قهره وقدرته.

- ثم ذكر انفراده تعالى بالتدبير والعطاء والمنع وأنه لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وهذا يوجب تعلق القلب به وحده لا شريك له، والافتقار إليه من جميع الوجوه فلا يدعى غيره ولا يخاف ولا يرجى سواه، قال تعالى في هذا المعنى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال صلى الله عليه وسلم في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[1].

- ثم قال ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

وهنا يأمر تعالى، جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل لذكرها بالقلب اعترافاً بانها من عنده وحده لا شريك له، وباللسان ثناء على الله المنعم المتفضل، وبالجوارح انقياداً لله في امتثال أمره واجتناب نهيه، فإن ذكر نعم الله تعالى داع لشكره، ثم نبههم على

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩ ط الرسالة) ح(٢٦٦٩) الترمذي (٤/ ٦٦٧) ح(٢٥١٦) قال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣١٨) ح(٧٩٦٣)، وقال محقق المسند(٤/ ٤١٠ ط الرسالة): «إسناده قوي».

أصول النعم، وهي الخلق والرزق وأنه المتفرد بذلك لا شريك له، فقال: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}، ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله، نتج من ذلك، أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، وأنه المستحق أن تصرف له جميع العبادات، ولهذا قال: {لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي: كيف تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق(١).

وقال تعالى في سورة فاطر في بيان معنى أن جميع الخلق مفتقرون الله، والله هو الغني الحميد: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٣-١٥].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: ٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

---

(١) وينظر في تفسير الآيات من سورة فاطر من الآية ١-٣ إلى تفسير ابن كثير - ت السلامة (٦/٥٣٢ -٥٣٣)، تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٦٨٤-٦٨٥).

تأمل في هذه الآيات الأربع وهي تتحدث عن نعمة عظيمة جليلة تدل على عظمة الله وجلاله وكمال قدرته، وهي نعمة حفظ الله تعالى للسموات والأرض من يحدث لهما خلل يفسد الحياة فيهما، ومن ذلك:

- رفع السماء عن الأرض بغير عمد يراه البشر.
- إنه كما قال عن نفسه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إلا إذا إذن بذلك.
- قال السعدي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] «أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}»[(١)].

فهو كما قال تعالى في الآية الأخرى التي سبق ذكرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

يقول السعدي رحمه الله عن معنى الآية: «يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما.

ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفع، والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بإمهال المذنبين، وعدم معالجته للعاصين، مع أنه لو أمر

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٦٤٠).

السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}»[١].

والآيات الدالة على عظمة الله وعظمة ملكه وتدبيره في القرآن العظيم كثير جداً.

خامساً: الآيات التي تبين عظمة تأثير القرآن، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، ومنها، قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وغير ذلك من الآيات، وقد سبقت أمثلة على أسماء الله وصفاته وأثرها على تقدير الله حق قدره..

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص٦٩١).

السبب السابع: الذكر والدعاء.

ومما له أثر كبير في زيادة تعظيم العبد لربه الإكثار من الذكر والدعاء وشرط حصول ذلك حضور القلب عند الذكر والدعاء، وأن يعلم ويفهم ما يقوله بلسانه، وبالأخص الأدعية والأذكار التي فيها ثناء على الله مع تكرار ذلك، كما ورد به النص، ودونك بعض الأمثلة على ذلك:

الأول: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، قَالَ: فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[(١)].

وهنا لا بد من حضور القلب حتى يشعر بمعنى هذا الدعاء والثناء على الله، فيقدمه بين يدي مطلبه، ويدل على عظمة هذا الدعاء أن النبي صلى الله عليه وسلم يقسم، فيقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»، فإذا حصل اليقين بذلك شعر العبد بعظمة من يدعوه وقربه منه.

الثاني: في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ إِذَا قَضَى الصَّلَاةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ »[(٢)].

وهذا الذكر وأمثاله له أثر عظيم على القلب في الشعور بعظمة الله وتقديره حق التقدير؛ ولكن ذلك مرهون بحضور القلب وأن يدرك ويعي ما يقول اللسان وهو يتكرر بعد كل صلاة فريضة، قال الخطابي رحمه الله: « و(الْجَدُّ) في هذا تفسيره الغنى، ويقال: بل هو

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٥١٥ ت شاكر) ح(٣٤٧٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٢٦ ط السلطانية)ح(٦٦١٥)،ومسلم (٢/ ٩٦ ط التركية)(٥٩٣).

الحظ والبخت، والجد: العظمة أيضاً، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣] يقول: إن الخلق كلهم مفتقرون إليك، لا يجبر مفاقرهم غيرك، ولا يستغني أحد منهم عن فضلك»[(١)].

وكان يقول صلى الله عليه وسلم قريباً منه بعد القيام من ركوعه[(٢)]، وقد سبق الكلام عليه[(٣)].

الثالث: عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ نَبِيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَمْسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلهِ وَالْحَمْدُ لِلهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، قَالَ: أُرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ « لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلهِ»[(٤)].

وهذا الذكر يقال في أذكار المساء والصباح وغيره كثير، لكن أخذته كمثال على أن المؤمن مرتبط قلبه بعظمة الله وأن له الملك التام والتصرف المطلق في هذا الكون وحده لا شريك له، ويشعر بفقره وحاجته إليه في كل حال من حاله في مسائه وصباحه، وفي كل أوقاته في يومه وليلته، فقلبه متصل بالله معظماً له يقدره حق قدره في كل حال أحواله.

---

(١) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/ ٥٥١-٥٥٢).

(٢) ولفظه عند مسلم: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: " رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ ".

(٣) في موضعين الأول عند ذكر أذكار الرفع من الركوع، والموضع الثاني عند الكلام على معنى قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢] (ص ١٢٣).

(٤) صحيح مسلم (٨/ ٨٢ ط التركية)ح(٢٧٢٣).

الرابع: وفي الحديث المتفق عليه عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ، فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ».

قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ: وَرَسُولِكَ، قَالَ: «لَا، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[1].

الخامس: عَنْ سُهَيْلٍ قَالَ: «كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا، وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم »[2].

وهذان الذكران من أذكار النوم وغيرهما كثير، لكني أخذتهما كمثالين على ارتباط المسلم بتعظيم الله في كل حال من أحواله، فهو من حين يصبح إلى أن ينام وهو يتقلب بين العبادات التي تربط قلبه بتعظيم الله وتقديره حق التقدير، وتأمل معي في هذين الذكرين قبل النوم، تأمل معي بقلب حاضر يدرك ويعي معنى ما يقوله بلسانه، فكم معنى عظيم تؤسسه هذه الأذكار في القلب، من تعظيم الله وإجلاله، وتقديره حق قدره، وتعلق القلب به، حتى يكون آخر ما يقوله العبد من أذكار قبل النوم، تغرس هذا المعاني العظيمة في قلبه.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٨ ط السلطانية)ح(٢٤٧)، ومسلم (٨/ ٧٧ ط التركية) ح(٢٧١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ٧٨ ط التركية)ح(٢٧١٣).

السادس: وفي الصحيحين، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ خَاصَمْتُ، وَبِكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(١).

وهذا الذكر يقال في قيام الليل في صلاة التهجد ويفتتح به الصلاة، وإذا تدبرته بقلب حاضر يدرك ويعي معنى ما يقوله اللسان، فيغرس في القلب عظمة الله، ويرسخ معاني تقدير الله حق قدره.

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٣٢ ط السلطانية)ح(٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢)، ومسلم (٢/ ١٨٤ ط التركية)ح(٧٦٩)، ومسند الدارمي، وحرصت على جمع ألفاظه.

السابع: عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي عز وجل» فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَعَّدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ عَائِذٌ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَنَا، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ»(١).

ونختم هذه الأدعية والأذكار بهذا الثناء العظيم على الله تعالى، وكما أذكّر دائماً نفسي والقارئ بأن هذه الأذكار والأدعية لن يكون لها أثر على القلب، إلا إذا كان حاضراً متدبراً مدركاً واعياً بمعاني ما يقوله اللسان، فدعنا نتأمل في هذا الثناء العظيم على الله، الذي يحدث أثره في قلب من يقوله، إذا هو استشعر معاني ما يقول:

قوله ﷺ:"اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي عز وجل» فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا".

وهذا الثناء العظيم من النبي صلى الله عليه وسلم على ربه له أثره الكبير على استجابة الدعاء الذي سيكون بعد الثناء على الله تعالى، وتلاحظ أن الثناء كله يغرس في القلوب تعظيم الله وتقديره حق قدره، ولكن ذلك يكون بحضور القلب المطلوب أصلاً في استجابة الدعاء، كما في الحديث الذي سبق: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند(٢٤/ ٢٤٧ ط الرسالة)ح(١٥٤٩٢)، وصححه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٦ ط العلمية)ح(٤٣٠٨) ووافقه الذهبي، وقال محقق مسند الإمام أحمد: "رجاله ثقات" .

يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[(١)]، وعليه فإن هذه المعاني العظيمة في هذا الثناء على الله من قبل نبيه صلى الله عليه وسلم الذي هو أعرف الناس بربه، وأعرف الناس بالثناء المناسب له ﷻ، وكل هذا الثناء يؤسس في القلب تعظيم الله وتقديره حق قدره، ودونك إشارات في هذا المعنى:

أولاً: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ".

بداية الثناء على الله بهذه الجملة القصيرة التي جمعت معنى الحمد بكل انواعه، فقد حمد الله في بداية ثنائه بأن له الحمد كله، ولا مزيد على ذلك، فهذه جملة قصيرة جامعة لكل صنوف الحمد.

ثانياً: "اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ".

قال تعالى عن نفسه: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وسمى النبي صلى الله عليه وسلم الله بالقابض الباسط، كما في السنن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ غَلَا السِّعْرُ فَسَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ»[(٢)].

ومعنى هذا الثناء: أي لا قابض لما بسطت من الرزق والنعم، لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يرد هذه النعم والارزاق التي بسطت بها يدك على عبدك ولو اجتمع عليه كل الناس ليفعلوا ذلك لما استطاعوا إليه سبيلاً، وفي المقابل لا باسط لما قبضت من الرزق والنعم عن

---

(١) أخرجه أحمد (١١/ ٢٣٥) ح(٦٦٥٥)، والترمذي واللفظ له (٥/ ٥١٧) ح(٣٤٧٩) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»،، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١٠/ ١٤٨)ح(١٧٢٠٣):"رواه أحمد، وإسناده حسن". وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ١٠٨) ح(٢٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠/ ٤٦ ط الرسالة) ح(١٢٥٩١)، وأبو داود (٣/ ٢٧٢ ت محيي الدين عبد الحميد) ح(٣٤٥١)، والترمذي (٣/ ٥٩٧ ت شاكر) ح(١٣١٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ٧٤١ ت عبد الباقي) ح(٢٢٠٠)، وصححه الألباني فيصحيح الجامع(١/ ٣٧٧) ح(١٨٤٦) وصحح إسناده محقق المسند.

أحد لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يأتي بهذا الرزق الذي قبضته ولو اجتمع الخلق كلهم لما استطاعوا أن يفعلوا ذلك، لأن الأمر كله بيد الله سبحانه، كما قال عن نفسه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٢-٣].

وكما في الحديث الذي سبق وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ».

ثالثاً: "وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ".

وفي هذه الجملة من الثناء بيان بأن الهداية والإضلال بيده سبحانه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧].

وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وكما في الحديث كان مما يقوله صلى الله عليه وسلم في مقدمة خطبه: «مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١١ ط التركية)ح(٨٦٧).

رابعاً: "وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ".

وهذا الثناء يشبه في معناه –والله أعلم– ما سبق في جملة الثناء: **"اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ".**

خامساً: "وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَعَّدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ".

وهذه الجملة من الثناء كما في الجمل السابقة كلها بيان أن التصرف في هذا الكون لله وحده لا شريك له ولا يملك أحد ذرة تصرف فيه لا نبي مرسل ولا ملَك مقرب فضلاً عن غيرهم ممن هم دون ذلك من أئمة الدين أولياء الله الصالحين، فالأمر كله لله وحده لا شريك له، وبهذا يظهر عظم معاني هذه الجمل من الثناء على الله، وأنها تغرس في قلب قائلها عظمة الله تعالى، وتجعل العبد يقدر ربه حق التقدير.

سادساً: "اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ...." ومن هنا يبدأ الدعاء.

ثم انتقل النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا الثناء على الله إلى الدعاء، وهذا ادعى للإجابة من الله تعالى، فهو ثناء عظيم يليه دعاء عظيم، فإذا حضر القلب عند ذلك خشع وخضع لله تعالى، وهو يردد جمل هذا الثناء العظيم على الله وشعر وأدرك حاجته وفقره العظيم لربه الكريم، وتوجه القلب إلى الله بعد هذا الثناء بهذا الدعاء العظيم الذي جمع فيه أعظم مطالب الدنيا والآخرة.

فهرس المحتويات

المقدمة..... ٢
الآيات في ذلك. ٣
معنى الآيات وأقوال المفسرين فيها ٣
لماذا لم يقدروا الله حق قدره؟..... ٤
من أسباب عدم تقديرهم لله حق قدره. ٤
١- جهلهم بالله وعدم معرفته. ٤
٢- اتباع الشيطان. ٥
٣- الافتتان بزخرف القول..... ٦
٤- التعصب والتقليد الأعمى لما عليه الآباء والأجداد. ٦
٥- إتباع المتشابه وعدم رده للمحكم. ٧
الشيطان ودوره في ذلك. ٩
أمثلة على عدم تقدير العبد لربه..... ١١
الوقوع في الشرك. ١١
خوف المؤمنين حقاً من الوقوع في الشرك. ١٢
عبادة القبور ١٤
خطر عبادة الهوى. ١٩
وكل من لم يقدر الله في الدنيا فسيقدره حق قدره في مكان آخر لكن أين؟ ٢٠
ودونك أمثلة على ذلك مما يحصل لهؤلاء الغافلين في يوم القيامة: ٢٠
كل المخلوقات تقدر الله حق قدره إلا من أبى وعصى من المكلفين من الإنس والجن.
..... ٢٤
السموات السبع والأرض ومن فيهن تقدر الله حق قدره. ٢٤
مع الرحلة المباركة في موكب الأنبياء عليهم السلام. ٢٧

نوح عليه السلام. ٢٧
إبراهيم عليه السلام. ٣٠
موسى عليه السلام. ٣٣
نبينا عليه السلام. ٣٥
في موكب الصالحين..... ٣٩
هاجر أم إسماعيل عليهما السلام. ٣٩
أم موسى عليه وعليها السلام. ٤١
سحرة فرعون. ٤٥
ماشطة ابنة فرعون. ٥٠
آسية بنت مزاحم امرأة فرعون. ٥١
مع الصحابة الكرام رضي الله عنهم ٥٣
مع خبر الفاروق رضي الله عنه. ٥٣
آيات تغير مسار حياته..... ٥٣
تعظيمه لأمر الله..... ٥٤
زهده في الدنيا وتعلق قلبه بالآخرة. ٥٥
خوفه من الله تعالى. ٥٥
خاتمته العظيمة. ٥٦
كيف نقدر الله حق قدره؟ ٥٧
السبب الأول: التعرف على الله من خلال الأسماء والصفات..... ٥٨
اسم الله جل جلاله "العليم". ٥٩
اسم الله جل جلاله "السميع البصير". ٦٦
اسم الله جل جلاله "الرحمن الرحيم"..... ٧٠
"الغفور الرحيم". ٧٥

"العزيز الرحيم". ٧٧
اسم الله جل جلاله "الملك"..... ٧٩
اسم الله جل جلاله "القوي العزيز". ٨٢
اسم الله جل جلاله "القدير"..... ٨٤
اسم الله جل جلاله "الحي القيوم". ٨٦
اسم الله جل جلاله "الصمد". ٩١
السبب الثاني: ترسيخ توحيد الألوهية في القلب مع الحرص الشديد على صفاء
التوحيد ونقائه من الشرك بكل أنواعه والبعد عن كل ذرائعه الموصلة إليه. ٩٢
السبب الثالث: ترسيخ معاني توحيد الربوبية في القلب، وربطه بتوحيد الألوهية. .. ٩٦
السبب الرابع: الإيمان بحقائق اليوم الآخر. ١٠٠
السبب الخامس: الصلاة الخاشعة..... ١١٦
السبب السادس: تدبر آيات القرآن العظيم، وبالأخص الآيات التي تتحدث عن
عظمة الله وقوته وقدرته. ١٢٨
السبب السابع: الذكر والدعاء. ١٤٤